الطبعة السابعة

# حكاية حب

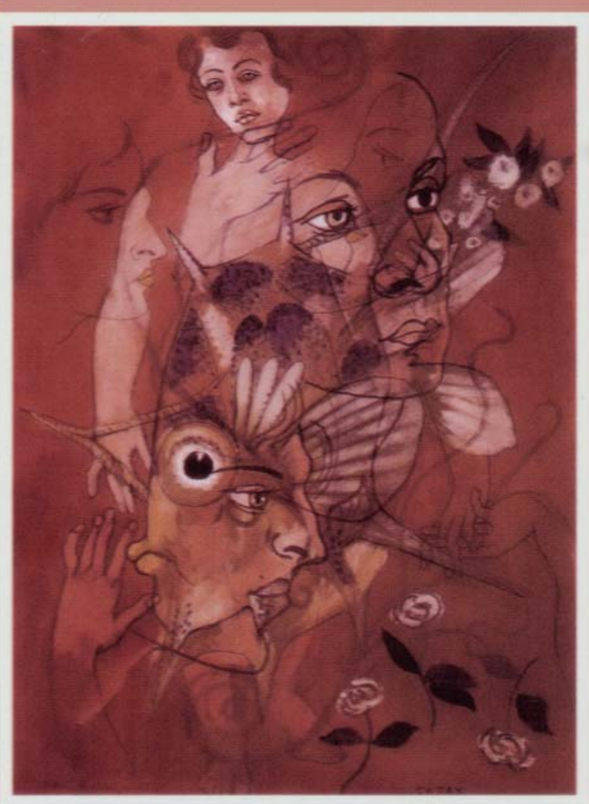
غازي عبد الرحمن القصيبي

21.12.2012



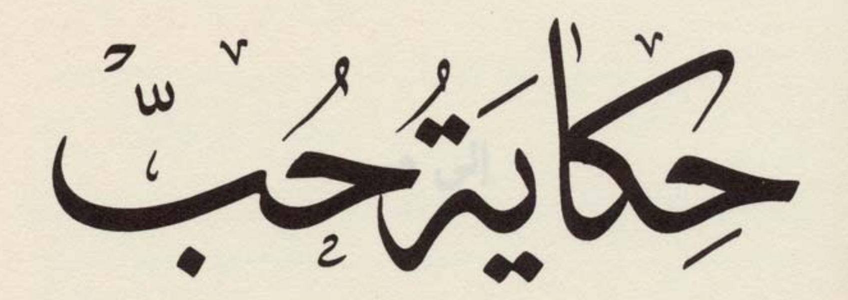








# غازي عبد الرحمن القصيبي









دار الساقي
بيروت ـ لندن


حِكَايَةُ حُبٍّ

## صدر للمؤلف عن دار الساقي

- العصفورية
- رواية ٧
- العودة سائحاً إلى كاليفورنيا
- دنسكو
- من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون؟
- واللون عن الأوراد (شعر)
- رجل جاء وذهب
- ثورة في السنة النبوية

**لوحة الغلاف: فرنسيس بيكا بيكا، كاتكس ١٩٢٩**

الطبعة الثانية ٢٠٠١
الطبعة السابعة ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-547-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٠٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

إلى ميم

# مدخل

عـنـدمـا أزَمـعَ رَكْـبُ الـعُـمُـرِ

رحِـلـةً... نـحـو المغاني الأُخَـرِ

ظَـهَـرتْ تجـلـوكَ كَـفُّ الـقَـدَرِ

صورةً... أروعَ ما في الصُوَرِ

تـتـراءى فـي الـشـبـابِ الـعَـطِـرِ

نفحةً... تحملُ طِيبَ السَحَرِ

وَقفَ الـعُـمْـرُ لـهـا... معتذراً

وثـنـى الـركْـبُ عِـنـانَ الـسَـفَـرِ

**إبراهيم ناجي**

**من قصيدة «الخريف»**

«كانت يدها اليُمنى تعبثُ بأنفه. تلتفّ الأصابع الصغيرة حول قاعدة الأنف. تدلّكها برفق. ثم تصعد بهدوء، بهدوء تام. وتقف في المنطقة الخالية من الشعر بين حاجبيه. ثم تنزلق ببطء شديد حتّى تصل إلى طرف أنفه. تدخلُ السبّابة الفتحة اليمنى. تبقى هناك قليلاً. تخرج. تتحول إلى الفتحة الثانية. كانت المداعبة الغريبة تتسرّب إلى بدنه ذبذبات كهربائية رتيبة تنشر السكينة في خلاياه كُلّها. وينظر إلى الوجه القريب من وجهه على المخدة، ويبتسم. ولكنها لا تبتسم. لأنها لا تراه. لأنها مغمضة عينيها في ما يشبه الغيبوبة السعيدة. تبدأ أصابعها الحركة فوق أنفه من جديد. تصعد وتنزل. وتتوقف. وتدلّك. في حركة كسول تجسّد الإسترخاء وتبثّه. وتمر دقائق. ويدها تعبث بأنفه. تعامل أنفه كما لو كان طفلها الصغير. طفلها الوحيد المُدلّل. ويغفو. ويحلم أنه عاد طفلاً. في أحضان أمّه التي تبدو في الحلم باهرة الجمال. كالمرأة التي ترقد بجانبه. ويصحو. يتأمّل الشعر الطويل الكستنائي. الشفتين المكتنزتين. الملامح البريئة الشهيّة. وأصابعها لا تزال تحنو على أنفه. وفجأة، تبتسم. وعيناها مغمضتان. ويحكّ

إبهامها طرف أنفه. ويضحك. وتتّسع ابتسامة المرأة الجميلة. وتبدأ أصابعها الحركة من جديد. تدلّك برفق. برفق. ويسترخي جسده. ويسترخي. لا يشعر بجسده. لا يحس بثقله. يتحرّر من قيود الزمان والمكان. وينام بطمأنينة».

❀ ❀ ❀

تدخل الممرّضة، وتزيح الستائر عن النوافذ، وينهمر الضوء الصيفيّ في الغرفة. يفتح عينيه، وتأتي العبارة الصباحية المألوفة:

- كيف نحسّ هذا الصباح؟

لا يردّ. تعرف هيلين جيّداً أنه يكره أن تخاطبه بصيغة الجمع. ومع ذلك تستمر:

- وكيف نمنا البارحة؟

يصمت. هيلين، ذات الأعوام الخمسين والقوام السمين والوجه الصبوح، تعشق هذه اللعبة:

- وهل حلمنا، كالعادة؟

تقضي قواعد اللعبة ألاّ يجيب إلاّ إذا كفّت عن إستعمال صيغة الجمع. ينظر إليها ببرود. تقترب من سريره، وتبتسم:

- مستر عريان! هل تريد الإفطار؟

يبتسم، بدوره، ويقول:

- هيلين! هل تعبثين بأنوف أصدقائك؟

تنظر إليه مستغربة:

ـ ماذا تقصد؟

ـ هيلين! لا بُدّ أن لك أصدقاء من الرجال. هل تعبثين بأنوفهم في لحظات الخلوة؟

ـ أعبث بأنوفهم؟! لماذا أعبث بأنوفهم؟! مستر عريان! ما هذا السؤال؟

ـ حسناً! حسناً! إنسي الموضوع. سوف أكون مستعدّاً للإفطار بعد ثلث ساعة.

يذهب إلى الحمّام. يمارس الواجبات الحمّامية الصباحية المألوفة. يحلق. يتأمّل وجهه بعد الحلاقة. يبدو وجهه طبيعياً. يتأمّل جسمه وهو ينشّفه بعد الدُشّ الفاتر. جسمه، بدوره، يبدو طبيعياً. يعود إلى الغرفة. في انتظاره تقف هيلين بقرب طاولة الخدمة المتحركة. بحركة مسرحية تزيح الغطاء الفضيّ عن الطبق الذي يحتوي بيضتين مسلوقتين. بحركة مسرحية أخرى، تنضو القميص القطني عن إبريق الشاي. يجلس، وتقول:

ـ كيف شهيّتنا هذا الصباح؟

يتجاهل السؤال. يمد يده إلى التوسْت ويبدأ في طليه بالزبدة. تنتقل هيلين إلى السرير. وتبدأ طقوس المعركة السريرية اليومية الضارية. تنظر إليه، وتقول:

ـ هل كنت تخوض حرباً؟ يبدو السرير وكأنه ميدان قتال.

ـ هيلين! حلمت البارحة أننا، أنت وأنا، كُنّا نمارس الحب على هذا السرير.

ـ آه! الوعود! الوعود!

يمضغ التوست المُغطّى بالزبدة والعسل، ويقول:

ـ هيلين! هل تعتقدين أن هذا شيء طبيعي؟

ـ ممارستنا الحُبّ؟ بالتأكيد!

ـ هيلين! أقصد هل تعتقدين أنّه من الطبيعي أن يتمتع إنسان موشك على الموت بشهيّة ممتازة؟

تقترب هيلين منه، وتنظر إليه كما لو كان طفلاً شقياً على وشك أن يتلقى ضربة على يده، وتقول:

ـ أنت تعرف أننا لا نبحث موضوعاً كهذا في هذا المكان.

ـ هيلين! في هذا المكان المُعدّ للموت، وللموت وحده، لا تبحثون موضوع الموت؟! هل تعتقدين أن هذا شيء طبيعي؟

ـ عدنا إلى المشاغبة، أليس كذلك؟ أفقنا سخفاء هذا الصباح نقول كلاماً سخيفاً، أليس كذلك؟

يبتسم. ويواصل إفطاره. وتواصل معركتها اليومية مع السرير.



«يقف أمام المتجر الصغير. المختفي في ركن من أركان البهو

الواسع. يتأمّل الفترينة. ويقرر، بلا سبب، دخول المتجر. ويُفاجَأُ برؤية الأنثى الساحرة. لا توجد كلمة أخرى. الساحرة! تنظر إليه، وتبتسم. لا تقول شيئاً. لا تتطوع بتقديم خدمة. ولا تعطيه كشفاً بمحتويات المتجر. تعود إلى الكتاب الذي كانت تقرأه. يتجوّل أمام الصناديق الزجاجية. يعود إلى المرأة الساحرة، ويقول:

ـ أريد شيئاً لزوجتي. ماذا تقترحين؟

تتسع الابتسامة:

ـ أقترح أن تذهب إلى أقرب محل للساعات الماسية.

طريقة مبتكرة في التسويق! يقول:

ـ لا وقت لديّ. سوف أغادر إلى المطار بعد دقائق.

ـ لديّ حقائب جلدية ممتازة. تستطيع المرأة، دائماً، أن تستفيد من الحقائب الجلدية.

ـ حزمت أمتعتي. أريد شيئاً صغيراً. شيئاً يمكن أن أضعه في هذه الشنطة.

تبتسم، وتتحول نظرتها إلى الحقيبة التي يحملها. من الواضح أنها لم تسمع كلمة «الشنطة» من قبل. ومع ذلك لا تسأله من أيّ بلد جاء، وإلى أيّ بلدٍ سيطير. تقف. تفتح الصندوق الزجاجي الكبير الذي كانت تجلس وراءه. وتخرج ثلاث علب مخملية. تفتحها واحدة بعد الأخرى، وهي تتكلم:

ـ هنا خاتم. وهنا عقد. وهنا قرطان. الجميع من المرجان. المرجان الحقيقي. هل تحب زوجتك المرجان؟

قبل أن يجيب، تبادره:

- لا أعني التدخّل في...

يقاطعها:

- زوجتي تعشق المرجان خاصة إذا كان حقيقياً.

تضحك برقّة:

- كان قصدي...

- أنا واثق أن كل شيء هنا حقيقي.

تعلو حمرة خفر خفيفة وجنتيها. تنقلّ عينيها بين الصناديق الثلاثة، ثم ترفعهما إلى عينيه.

يقول:

- لفّي العُلَب الثلاث، رجاءً.

تُخرج من الدرج أوراقاً مزخرفة. تبدأ في لفّ العلب وهي تدندن بلحن لا يستطيع تبيّنه. تقدمّ له الهدية التي ارتدت ألوان الطيف. يسألها:

- كم؟

- بأي عملة ستدفع؟

- بالدولار. ألسنا جميعاً من رعايا العم سام؟

- ثلاثمائة دولار. وأنا لست من رعايا أحد.

يقدّم لها الأوراق الخضراء الثلاث، ويقول:

- أليس الثمن رخيصاً؟

- لا أدري. كل الأشياء نسبية.

- هل بوسعي أن أسألك من يملك هذا المتجر؟

ببساطة متناهية، تقول:

- زوجي.

يحاول إخفاء دهشته. وتلاحظ وتشرح:

- لا يملك الفندق. يملك المتجر. يستأجره من الفندق.

يحسّ أن هذه المخلوقة الجذّابة طعنته من الخلف. غدرت به. خانته. متزوّجة؟! تنظر إليه حائرة. ويضع على شفتيه إبتسامة، ويقول:

- هل تستطيعين إبلاغ زوجك رسالة؟

- يعتمد على محتوى الرسالة.

اللعينة المشاغبة!

- قولي له إني أنصحه بمضاعفة أسعاره.

- بكل سرور.

تستمر واقفة تنظر إليه بلا حرج. يسألها:

ـ هل أعجبتك الرواية؟

تنظر إلى الكتاب الذي كانت تقرأة، وتقول:

ـ تقصد «النوم مع السراب»؟

ـ نعم.

ـ لم أكمل الكتاب. لا زلت في الربع الأول.

ـ وما رأيك في هذا الربع؟

ـ لا بأس به.

ـ أشكرك.

تنظر إليه باستغراب، ويقول:

ـ أنا مؤلّف الرواية.

يخرج دون أن ينظر إليها ليرى رد الفعل. في طريقه إلى باب الفندق الخارجي تهاجمه فكرة صبيانية. يتوقف عند مكتب الاستقبال. ويكتب رسالة يرجو فيها «مديرة متجر التراث» أن تقبل المرجان «هدية صغيرة من كاتب إلى قارئه». ويطلب من موظف الاستقبال إيصال الهدية والرسالة إلى المتجر.



يفتح عينيه، فيجد البروفسور أنتوني ميدلاند على مقعد بجواره في الحديقة. يبتسم البروفسور، ويقول:

ـ كنتَ في غفوة. من يلومك؟ لم نر يوماً مشمساً مثل هذا منذ فترة طويلة.

ـ في بلادي، يا بروفسور، نتوق إلى المطر لكثرة الأيام المشمسة.

يصمت البروفسور الذي كان، حتّى تقاعده قبل سنوات، أستاذاً للأدب الإنجليزي في جامعة بريطانية مرموقة، ثم يتنهد:

ـ آه! الشرق! الشرق الغامض! الشرق الذي...

يشرد ذهن البروفسور، على ما يبدو، ويترك الجملة بلا نهاية. بعد فترة صمت قصيرة يقول:

ـ سمعت انك تكتب الروايات. هل هذا صحيح؟

ـ مهنتي المحاماة. وأكتب الروايات في أوقات فراغي للتسلية.

ـ التسلية؟! لا! لا! الكتابة عمل جاد وشاق. شاق جداً. الكتابة دفعت بكثير من الكتّاب إلى الإنتحار أو الجنون أو الإدمان.

ـ وهذا ما يدفعني الى أن أكتب للتسلية.

ـ هل تكتب قصصاً هزلية؟

ـ هل هناك قصص غير هزلية، يا بروفسور؟

ـ سؤال فلسفي عميق. الحق أني لا أعرف الجواب. هل كتبت كتباً كثيرة؟

ـ لم أكتب سوى ثلاثِ روايات، ولم تنجح منها سوى

واحدة. بيع من الأولى ألف نسخة اشتريت أنا معظمها. وبيع من الثانية خمسمائة نسخة اشتريتها أنا كلها...

يقاطعه البروفسور بضحكة عالية، ويقول:

- لا أعتقد أن جيفري آرشر يشعر بالغيرة منك.

- ولا ستيفن كنج. إلاّ أن الرواية الثالثة نجحت. بيع منها خمسة آلاف نسخة. في عالمنا العربي يعتبر هذا رقماً قياسياً.

- الأدب الجيد لا يقاس بمعيار البيع.

- شكراً!

- رواية «يوليسيس» لم تتجاوز طبعتها الأولى ألف نسخة. ما هي موضوعات رواياتك؟

- سوف أعطيك الأسماء، وأترك لك أن تستنتج الموضوع.

- آه! أنت تعيدني إلى أيام الجامعة والتدريس. هات!

- الرواية الأولى اسمها «سنوات الإعصار».

- أظن أن الرواية تتعامل مع العنف، مع عنف من نوع أو آخر.

- أحسنت! الرواية الثانية اسمها «القطرة الأولى».

- «القطرة الأولى»؟ يظهر لي أنها سيرة ذاتية تبدأ من الطفولة المبكّرة.

- تستطيع أن تقول ذلك. الرواية الثالثة الناجحة اسمها

«النوم مع السراب». أعتقد أنها نجحت بسبب إسمها.

- تقصد الإشارة إلى السراب؟

- أقصد الإشارة إلى النوم.

- دعني أفكّر. «النوم مع السراب». السراب؟ من الواضح أن الرواية تتحدث عن المأساة الإنسانية.

- تتحدّث، تحديداً، عن مأساة رجل واحد. زئر نساء كهل. ذئب عجوز.

- آه! الرجل الذي يبحث عن السعادة في الجنس فلا يجدها؟ دون جوان؟

- شيء من هذا القبيل.

- هل تُرجمتْ رواياتك إلى الإنجليزية؟

- بروفسور! إذا كانت قد فشلت هذا الفشل الذريع في لغتها الأصلية، هل تتوقع أن تنجح إذا نشرت بلغة أخرى؟

- حدث... يحدث أحياناً... قد يحدث...

يصمت البروفسور. وبعد ثوان يميل رأسه على صدره ويبدأ الشخير الهادىء.

❀ ❀ ❀

تدخل جانيت، الممرضة المسائية الجميلة، وتسأله:

- مستر عريان! هل ستتعشّى هنا أو في غرفة الطعام؟

ـ هنا إن أمكن.

ـ وماذا تريد هذا المساء؟

ـ جانيت! أنت تعرفين أني آكل كلّ شيء يجيء من مطعمنا ذي الشهرة العالمية.

ـ حسناً! الثامنة، إذن.

ـ جانيت!

ـ نعم.

ـ هل تعبثين بأنوف أصدقائك؟

تردّ على الفور بجدّية كاملة:

ـ بطبيعة الحال! طيلة الوقت! لا شيء يثير الرجال جنسياً مثل العبث بأنوفهم.

ـ جانيت! العبث بالأنف لا يثير الرجل جنسياً.

ـ آسفة! يبدو أن معلوماتي قديمة. ماذا يفعل العبث بالأنف؟

ـ يُخدّر ويهدّىء. يبعث على الاسترخاء.

ـ آه! ذكرتني! حان موعد الحقنة. التخدير الطبيّ. ذات يوم لا بدّ أن تعلّمني التخدير الأنفي. من يدري فقد نستغني عن الحقنة.

تعود جانيت، ويمدّ ذراعه، ويشعر بالوخزة، ويغمض عينيه.

❁ ❁ ❁

«بعد ستة شهور، ستة شهور كاملة، عاد إلى الفندق. في انتظاره في الجناح وجد الهديّة البراقة ومعها مظرف يحمل إسمه. فتح المظرف وبدأ يقرأ: «عزيزي الأستاذ يعقوب. أشكرك على الهديّة ولكني لا أستطيع قبولها وأعيدها مع التحية. أكملت قراءة الرواية. وجدتها، من ناحية المضمون، محزنة جداً. أمّا من الناحية الأدبية، فهي فوق المتوسط». كانت الرسالة مطبوعة بالآلة الكاتبة ولا تحمل أيّ توقيع. قرّر أن يراها على الفور. على الفور! نزل واتجه، مباشرة، إلى المتجر. اقتحم المكان اقتحاماً دون تفكير. إلاّ أنه لم يجدها هناك. وجد رجلاً كهلاً أشيب بشوش الملامح. ماذا يفعل هذا الكهل هنا؟ وعلى كرسيّها؟ بمجرد دخوله نهض الكهل مُرحّباً:

ـ أهلاً وسهلاً! نوّرت المكان. شرّفت المتجر. أي خدمة؟

خرجت الكلمات من فمه مترددة، خائفة، متخاذلة:

ـ البائعة... أعني الفتاة... التي كانت... كانت تبيع هنا... سبق أن قالت... أخبرتني... أن هناك... مجموعة... فاخرة... من الحقائب.

نظر إليه الكهل باستغراب، وسأل:

ـ الفتاة؟! البائعة؟! هنا؟!

تمتم بحرج متزايد:

ـ قبل بضعة شهور، ستة شهور، كنت هنا في المتجر، وكانت هناك بائعة قالت...

هجمت علامات التفهّم على الوجه البشوش، وقال الكهل ضاحكاً:

ـ آه! روضة! زوجتي! تدير المتجر. مجموعة الحقائب التي كانت هنا...

لم يسمع ما قاله الرجل الأشيب عن الحقائب. ظلت الكلمتان تقرعان أذنيه كأجراس كاتدرائية. روضة! زوجتي! روضة! زوجتي! روضة! زوجتي! روضة! زوجتي! أفاق من ذهوله وسمع الرجل يقول:

ـ ... وبمجرّد خروجها من المستشفى...

صاح بإنزعاج أدهشه كما أدهش الرجل:

ـ المستشفى؟ أيّ مستشفى؟ هل هي مريضة؟ ماذا بها؟

ضحك الكهل مرة أخرى، وقال:

ـ لا! لا! هي بخير. غداً سوف تدخل المستشفى للولادة. بمجرد خروجها سوف أطلب منها...

قال الرجل شيئاً عن الحقائب لم يستوعبه. ثم سأله:

ـ هل لدى جنابك أولاد؟

ـ ولد واحد.

ـ الله يحفظه لك. أنا تزوّجت متأخراً وهذا وليدي الأول. حقيقة الأمر أنها وليدتنا الأولى، إذا صدق الطبيب. قرّرنا أن نسمّيها هديل. ما رأيك؟

ـ هديل؟ هديل الحمام! اسم جميل جداً. أتمنّى للمدام السلامة. ولهديل.

ـ شكراً. سوف تجد مجموعة من الحقائب الجميلة في زيارتك القادمة.

خرج مذعوراً، وكأنه يفرّ من قبره المحفور داخل المتجر. في الأيام التي تلت كان شارد الذهن يشارك في اجتماعات العمل بجسمه. أمّا روحه فكانت ترفرف فوق مكان مجهول حيث تلد امرأة جميلة جداً طفلة جميلة جداً اسمها هديل».



بعد العشاء، يقول لجانيت:

ـ لا تنسي السيجارة.

ـ لن أنساها. وسوف أبقى معك، حسب تعليمات الدكتور موريسون، للتأكد من أنك لن تلمسها.

ـ أنت تعرفين أني لا أدخّن، ولن ألمسها.

ـ ومع ذلك سوف أبقى لمراقبتك.

تجلس جانيت. وتخرج علبة سجائر من جيبها. وتأخذ

سيجارة تشعلها بولاّعة تخرجها من الجيب الآخر. تمتصّ السيجارة حتى تشتعل الجذوة. وتضعها على المنفضة. وتقول:

- أنت الوحيد الذي سُمح له بالتدخين في تاريخ هذا المكان.

- جانيت! أنا لا أدخن. أنا أتأمل الدخان. وأفكّر.

❁ ❁ ❁

«الأسنان البيضاء اللامعة. المتناسقة. عقد اللؤلؤ! والمفارقة بين حمرة الشفتين وبياض الأسنان تذهله. والمفارقة بين النار في طرف السيجارة ولون السيجارة الأبيض تأسره. وتنطبق الشفتان المكتنزتان على السيجارة بشبق. ويرى الدخان يخرج من فتحتي أنفها. وتفتح فمها. ويرى الأسنان البيضاء اللامعة. وتلفّه غمامة من الدخان. يتذكر قصة قصيرة كتبها يوسف إدريس. طالبة جامعية تدخّن والعميد ينظر إليها من نافذة مكتبه. تصف القصة التيار الجنسي الصاعق الذي هزّ الفتاة المراهقة والرجل الكهل عندما التقت عيناهما. لعلّها أحسن قصة كتبها يوسف إدريس. لعلها أحسن قصة قصيرة في الأدب العربي. تقفز القصة إلى ذهنه بمجرد أن يرى شفتي روضة تنطبقان بشبق على السيجارة».

❁ ❁ ❁

يفتح عينيه، وينظر إلى الممرّضة الحسناء، ويقول:

- جانيت! ما هي العلاقة بين التدخين والجنس؟

ترد الممرضة على الفور:

ـ علاقة وطيدة. كل الرجال يدخّنون بعد.. بعد.. تعرف المقصود.

ـ أعرف المقصود. ولكنني لا أتحدّث عما يحصل بعد. أتحدّث عمّا يحصل قبل. لماذا تثير المرأة التي تدخن غريزة الرجل؟

ـ أعتقد أن السبب تاريخي، في الماضي البعيد كانت العاهرات هن النساء الوحيدات اللواتي يُدخّن في الشوارع. تستطيع أن تعتبر تدخين المرأة أمامك دعوة مبطنة.

ـ جانيت، أيتها العبقرية! متى ترسلين لي دعوة مبطّنة؟

ـ أنا أرسل لك دعوة مفتوحة كل لحظة بدون جدوى.

ـ لا زلت شابة صغيرة. لا تفقدي الأمل.

❀ ❀ ❀

«يضغط أصبعاها على السيجارة بقسوة. ويطبق الفم النهم من جديد. وتتوهج الجمرة. وتزفر. ويخرج الدخان الكثيف من مكان عميق بعيد في داخلها. يتصاعد كالحمم التي تفلت من قاع بركان ضارب في الأرض. ويلفّ الدخان شعرها في غمامة من البخور النفاذ. ويقول:

ـ روضة! ما أجملك وأنت تدخنين.

ـ اسكت، يا رجل! هل تريد أن تقودني إلى السرطان؟

السرطان!

❀ ❀ ❀

ـ مستر عريان! مستر عريان!

يفتح عينيه:

ـ نعم؟

ـ انتهت السيجارة. سوف أذهب وأعود بالحقنة.

تخرج وتعود. وينسيه وجه جانيت وخزة الإبرة، ويتأمل، من موقعه على السرير، أشلاء السيجارة. يتناول كتاب «النوم مع السراب» ويبدأ في قراءة الصفحة الأولى:

«عندما اختار سالم الزير للفيلا اسم «دار السرور» كان يعرف ما يفعل. كان يريد أن تكون الدار مكاناً للمتعة، وللمتعة وحدها. المكان الذي يفرّ إليه من قيود مجتمعه الثقيلة. المكان الذي يتحرّر فيه من الناس ومن كلام الناس. المكان المحُرّم على الجميع، باستثناء الفتيات المراهقات الجميلات، وبعض أصدقائه الخُلّص القدامى...».

ترتسم ابتسامة على شفتيه، تنطبق عيناه، وينام قبل أن يتمكن من إطفاء نور القراءة.

❀ ❀ ❀

«يدخل المتجر، ويرى الطفلة في مهد صغير في الزاوية. ويرى أمها تقرأ، كما رآها في المرة الأولى، على المقعد نفسه، تقرأ كتاباً فرنسياً. بمجرد أن تراه يضيء وجهها بالفرح، وتنهض وتصافحه بحرارة لم يتوقعها. قبل أن يتكلم، تقول:

ـ لم أتوقّع أن أراك مرة أخرى. نحن على وشك الانتقال

إلى متجر جديد كبير في وسط العاصمة.

ـ مبروك! يبدو أن نصيحتي وجدتْ من يستمع إليها.

ـ مع فارق بسيط، ضاعفنا الأسعار ثلاثة أضعاف. هل تعرف ماذا كانت النتيجة؟

ـ تضاعفت المبيعات. الطبيعة البشرية تخرج، أحياناً، على القوانين المألوفة.

ـ ألا تريد شيئاً لزوجتك؟

يرى الابتسامة المشاغبة ويقرّر أن يتجاهل السؤال، ويقول:

ـ كم عمرها الآن؟

ـ هديل؟ سبعة شهور.

ـ تبدو أكبر.

ـ لعل السبب هو التغذية الطبيعية.

بدون أن يشعر تتجه عيناه إلى صدرها المليء. يشعر بشيء كاللهب يزحف على وجهه. يبدو أنها لم تلاحظ، أو لاحظت وتجاهلت:

ـ كنت أسألك إذا كنت تريد هدية لزوجتك.

ـ مدام روضة! كنتُ...

تقاطعه:

ـ روضة تكفي.

ـ روضة! لا بُدّ أن أعترف لك أنني...

تقاطعة مرة أخرى:

ـ هذا ليس بالمكان المناسب للاعترافات.

ـ هل يمكن أن نلتقي في مكان آخر؟

ـ لم لا؟ لديّ أسئلة عديدة عن «دار السرور». نلتقي في مكان آخر وفي وقت آخر أمّا الآن فقد حان وقت طعام هديل.

تذهب إلى المهد، وتحمل الطفلة، وتعود إلى مقعدها، وتضع الطفلة في حجرها. وتبدأ في فتح أزارير البلوزة وكأنه ليس موجوداً أمامها. مرة أخرى، يشعر باللهب يلفح وجهه ويغادر المتجر في مشية سرعان ما تتحول ركضاً».



يوقظه الصوت المعتاد:

ـ آن أن نصحو ونشرق! آن أن نصحو ونشرق!

يفتح عينيه، وينظر إلى هيلين ببرود مصطنع. تفتح هيلين الستائر وهي تتكلّم دون أن تنظر إليه:

ـ وهل صحوْنا جائعين هذا الصباح؟

لا يجيب. وتدور حول الغرفة، وهي تثرثر:

ـ يبدو أننا غاضبون اليوم. من المؤكّد أننا غاضبون. لا بد

أن شيئاً ما أغضبنا. ترى ما الذي أغضبنا؟

يستمر في صمته. أخيراً، تقول:

- مستر عريان! متى تريد الإفطار؟

- آه! هيلين! أنثاي المفضلة! صباح الخير!

- صباح الخير!

- هيلين! هل تؤمنين بالرضاعة الطبيعية؟

- أرى أننا عدنا إلى السخف.

يتجاهل، هذه المرّة، صيغة الجمع، ويقول:

- هيلين! لماذا لا ترقّين على رجل يموت وتجيبين على أسئلته حتّى لو كانت سخيفة بعض الشيء؟

- نعم! نعم! أؤمن بالرضاعة الطبيعية. أعني كنت أؤمن بها. ولا أودّ أن أسمع كلاماً عن الموت مرة أخرى، هل فهمت؟

- سمعاً وطاعة! هيلين! هل تذكرين موعدك الأوّل؟

- موعدي الأول؟! لا أظنّ.

- لا تظنّين؟!

- لم يكن موعدي الأول مع مارلون براندو. كان مع صبي غبيّ في فصلي. ذهبنا إلى السينما. الحقيقة أني ذهبت مع كل الصبيان الأغبياء في فصلي إلى السينما. كيف تتوقع مني أن أتذكّر؟

- أقصد الموعد الأول الحقيقي. الموعد الرومانسي. الموعد...

- مستر عريان! هذه قصة طويلة. متى تريد الإفطار؟

- بعد ربع ساعة.

يذهب إلى الممارسات الحمّامية اليومية. ويعود ويتناول الإفطار. ويغادر الغرفة إلى الحديقة. يتجه إلى مقعد بقرب معقد الدكتورة ماري هيلارد، ويحييها:

- دكتورة هيلارد! صباح الخير! يوم جميل!

- يوم جميل جداً! مستر عريان! تعال واشرب قهوتك معي.

يجلس ويتأمل الدكتورة التي كانت، حتى دخولها هذا المكان قبل بضعة أسابيع، تزاول مهنة الطب النفسي في هارلي ستريت، ويقول:

- دكتورة هيلارد! ما العلاقة بين التدخين والجنس؟

تبتسم الطبيبة، وترتشف جرعة من فنجان القهوة، وتقول:

- هناك أكثر من عشرين نظرية، وهناك الحقيقة. ماذا تريد؟

- أريد الحقيقة.

- الحقيقة أن العلاقة من صنع شركات التبغ. منذ قرن كامل وإعلانات السجائر في كل مكان تربط بين الجنس والدخان. الرجل الوسيم الجذّاب الفحل الذي يمتطي فرساً وفي فمه

سيجارة. المرأة المثيرة الشهية بفستانها القصير، والسيجارة في فمها.

- ألا يوجد شيء أعمق؟

- هل تريد النظريات الفرويدية؟ الرموز الجنسية والسلطة الأبوية والرغبة الدفينة في...

- لا! لا! أكتفي بالحقيقة.

- لماذا تسأل هذا السؤال؟ هل تدخّن؟

- لا. ولكني أحب امرأة تدخّن. وتدخينها، أمامي، يثيرني جداً.

- آه! القضية اختلفت تماماً. السرّ يكمن في المرأة نفسها لا في السيجارة. أراهنك أن أسنانها بيضاء مشعة وأن شفتيها قرمزيتان..

يقاطعها:

- دكتورة هيلاردا أنتِ...

- سمِّني ماري رجاءً!

- ماري! أنتِ ساحرة.

- هل تعتقد أن هناك فرقاً بين السحر وعلم النفس؟

يتناول فنجان القهوة من الممرّض، ويضعه أمامه على الطاولة، ويسأل الطبيبة:

ـ ماري! لماذا نكذب أحياناً؟

تضحك من الأعماق، وتقول:

ـ مستر... أعني يعقوب! أنت تسأل أسئلة شبيهة بأسئلة الأطفال، سهلة ولكن الإجابة عليها صعبة جداً. نحن نكذب ألف كذبة لألف سبب، ولكلّ كذبة سببها.

ـ عندما رأيتُ المرأة التي أحبّها، أعني المرأة التي أحببتها فيما بعد، كذبتُ عليها. قلت لها إنني متزوّج.

ـ معظم الرجال مرّوا بهذه الكذبة، في وقت أو آخر.

ـ ولكني لم أكن أعرفها. لم أرها من قبل. لم يكن هناك أي دافع يحثني على الكذب. ومع ذلك زعمت أنني كنت متزوجاً.

ـ يعقوب! يبدو أنك قرّرت، من النظرة الأولى، أنك ستحبّها وخفت مغبّة هذا الحُبّ، وقرّرت حماية نفسك بهذه الكذبة.

ـ كلّ هذا من النظرة الأولى؟!

ـ إسمع! أنا طبيبة نفسية ولكني امرأة من الطراز القديم. أؤمن بالرومانسية. أؤمن بالحبّ الذي يولد من النظرة الأولى.

يصمتان. ويشعر بتعب لذيذ يتمشى في جسمه. ويستسلم له.

«.. وجه الطفلة الضاحك على وجهه. وعطر الآيسكريم الذي أكله معها يملأ أنفه. ويضمّها. وهي تضحك. تضحك.

تضحك. وهو يهمس في أذنها: «أحبّك! أحبّك! أحبّك!» وتسيل دموعه. تغسل وجهها وتزيل بقعة الآيسكريم التي لا تزال بقرب فمها...».

- يعقوب! يعقوب!

يفتح عينيه، ويرى علامات القلق على وجه الطبيبة التي تنظر إليه وتقول:

- كنت تغفو. ثم بدأت تتأوه. ماذا حدث؟

- كنت أحلم. كان الحلم مؤثّراً بعض الشيء.

- لا تقصّه عليّ رجاءً. استمعت في عيادتي إلى آلاف الأحلام، ولا أستطيع تحمّل المزيد.

- لن أقصّه عليك. هذا الحلم لا يحتاج إلى تفسير.

❀ ❀ ❀

تضع جانيت السيجارة المشتعلة على المنفضة، وتجلس أمامه. يتأمّل وجهها الوسيم، ويسألها:

- جانيت! هل تذكرين موعدك الأول؟

تجيب بلا تردّد:

- كيف أنساه؟ كنت، وقتها، في التاسعة عشرة. وكانت الليلة قمراء. وكانت الموسيقى تأتي من مكان بعيد. وكان في يدي قدح من الشمبانيا. عندما أقبل الرجل الغريب الأسمر. ورجا أن أرقص معه. ورقصنا. كانت أروع رقصة في حياتي.

وعندما انتهت الرقصة نظرت إلى وجهه. لم أصدق. لم أصدق أن الرجل الذي كنت أرقص معه كان...

يخفت صوت جانيت، ويخفت حتى لا يكاد يسمعه.

«يجلسان على طاولة منفردة، في المطعم الصغير النائي المختفي بين صخور الشاطىء، ويسألها:

- أين هديل؟

- مع أمّي.

- وأين...؟

تقاطعه بشيء من العصبيّة:

- مسافر. هل من الممكن أن أطلب منك شيئاً؟

- تفضّلي.

- لا أودّ أن نتحدّث عنه. أبداً! أبداً! عندما أكون معك لا أودّ أن...

- حسناً! حسناً! فهمت! لن...

- أريد وعداً قاطعاً.

- أعدك وعداً قاطعاً.

- شكراً.

- روضة! كذبت عليك عندما قلت لك....

ـ لم أصدّق أنك متزوّج.

ينظر إليها بذهول، وتقول:

ـ لا يوجد رجل ذكيّ يطلب من امرأة أن تختار هديّة لزوجته. بالإضافة إلى ذلك، كان من الواضح من تصرفاتك أنك تعيش بلا امرأة.

ـ ماذا تقصدين؟ هل كانت ثيابي...

ـ ثيابك كانت مكويّة وملائمة.

ـ إذن...

ـ سمهّا غريزة المرأة إن شئت.

ـ لا أدري لماذا كذبت عليك.

ـ لا يهمّ. كلنا نكذب. هل هناك وسيلة أخرى للبقاء على قيد الحياة؟

ـ ماتت زوجتي أثناء الولادة. كان ذلك قبل فترة طويلة. ابني يوسف عمره...

تقاطعه:

ـ لا يهمّني عمر ابنك.

ـ آسف! تزوجت مرتين بعد وفاة زوجتي الأولى. ولم يزد عمر أيّ من الزيجتين عن بضعة شهور. كان حرصي على سعادة يوسف أهم من أي امرأة.

- ولهذا قرّرت الإضراب عن الزواج؟ ولهذا بنيت «دار السرور»؟ بالمناسبة، أين توجد «دار السرور»؟

- روضة! أرجوك! هذه رواية...

- أين «دار السرور»؟ هل هي في بلدتنا هذه؟

- حسناً! حسناً! ما دمت مصرّة على أن تعرفي فإليك العنوان. تقع «دار السرور» في شارع النساء، الواقع في الجزيرة التاسعة والتسعين من جزائر الواق واق، الواقعة في الليلة الثالثة...

تضحك ضحكة صافية من الأعماق. وتسترخي ملامحها. يزول التوتّر الذي ظلّ جاثماً على صدر اللقاء منذ دخلا المطعم، وتقول:

- مولاي شهريار! أعتقد أن «النوم مع السراب» سيرة شخصية مع قليل من الأكاذيب الروائية المعتادة.

- مولاتي شهرزاد! لماذا لا تدعين النقد لأهله؟

- درست الأدب في الجامعة. هل تريد أن ترى...

- لا! أصدقك. روضة! أنا لست روائياً محترفاً. حقيقة الأمر أني لست روائياً على الإطلاق. مهنتي المحاماة. وأنا أتسلّى بالكتابة في أوقات الفراغ. زياراتي كلها بسبب عملي القانوني. هل لديك قضيّة أستطيع المساعدة فيها؟

- قضية واحدة؟! عندي ألف قضيّة. وكل قضاياي مع الحياة. قضاياي لا يحلّها القانون. يحلّها الموت.

الموت؟! يكملان الوجبة بصمت. ويغادران المطعم. يتجهان إلى سيارتها، وتقول:

ـ ألن تأخذني معك إلى «دار السرور»؟

ـ روضة! روضة!

ـ آسفة، يا رجل! سوف آخذك أنا معي، إلى دار سروري أنا.

ينطلقان في السيارة الصغيرة التي تبتعد عن العاصمة وتزداد سرعتها كلما ابتعدت. تقف السيارة عند منزل صغير، ربما كان من الأدقّ أن يُسمّى كابينه، في ضاحية لم يرها من قبل. تخرج المفتاح من حقيبة يدها، وتفتح الباب، وتأخذه معها إلى الداخل. يجتازان البهو الصغير، والصالون الصغير. وتفتح الباب المؤدي إلى الشرفة الصغيرة. يعبران الشرفة، ويجد نفسه معها، فجأة، يسيران على شاطىء مهجور، يداً بيد، والبدر يطل عليهما، والساعة تقترب من منتصف الليل».

ـ مستر عريان!

يفتح عينيه، ويجد جانيت عابسة تتذمّر:

ـ كنت أقصّ عليك حكاية موعدي الرومانسي الأول. وبدلاً من أن تستمع إلى قصتي نمت وتركتني أتكلم.

ـ جانيت! سامحك الله! كيف تقولين هراءً كهذا؟ سمعت كل شيء. الليلة الساحرة، والموسيقى، والرجل الأسمر، والرقصة الحالمة و...

ـ عفواً! ظننتُ أنك نمت.

ـ لم أنم. شردت قليلاً مع أفكاري. إلى موعدي الأول. إلى شاطىء مقمر مهجور كنت أسير عليه، يداً بيد، مع أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

ـ مستر عريان! يا لك من رومانسي! كنت أعتقد أنك محام. هل تعرف ما نسمّي المحامين هنا؟

يتأوه:

ـ أخشى أن التسمية لا تتغيّر من مكان إلى مكان: أسماك القرش.

ـ أيها القرش الرومانسي! سوف أذهب وأعود بالحقنة.

تعود. ويمد ذراعه. وتنغرز الإبرة. ويشعر بالدفء الناعم يتسرب إلى دمائه. ينظر إليها ويقول:

ـ تصبحين على خير، أيتها السمكة الذهبية.

ـ آه! كيف عرفت أني من مواليد برج الحوت؟

ـ جانيت! نحن أسماك القرش نستطيع...

تقاطعه:

ـ تكلمت بما فيه الكفاية. اسكت الآن! ونم!.

يسكت. وينام.



يجلجل الصوت كالعادة، ويستيقظ، ويرى الضوء يدخل الغرفة باهتاً خجولاً هذه المرّة، ويستمع إلى ثرثرة هيلين.

ـ يا لنا من كسالى! يا لنا من كسالى! متى نقوم؟

يتجاهلها. وتتجاهله بدورها. وتبدأ جولتها التفقّدية في أنحاء الغرفة دون أن تكف عن الكلام:

ـ ننام ونأكل. ونأكل وننام. وننام ونحلم. ونصحو وننام.

يستمر صمته، وتقول:

ـ ومتى نعرف أنه يجب أن نصحو مبكرين؟ متى نعرف أن الطائر المبكّر هو الذي يظفر بالدودة؟

يغالب الضحكة وهو يتصور هيلين مكبّة على طبق من الدود المشويّ، ويستمر صامتاً.

ـ مستر عريان! متى تريد الإفطار؟

ـ آه! هيلين! ممرضتي الجميلة! قولي لي ما هو الحبّ.

ـ الحبّ يعني أنك لست في حاجة إلى الاعتذار أبداً.

ـ أيتها السارقة السمينة! أخذت هذه الجملة من «قصة حب».

ـ مستر عريان! أنا مجرد ممرّضة. أنت الروائي. قل لي أنت ما هو الحبّ.

- آه! هيلين! سؤال ذكي! الحُبّ هو القوة السحرية التي تمكّن الإنسان من التعامل مع قضايا الحياة دون الاستعانة بخدمات الموت.

يكفهر وجهها:

- ألم يسبق لي أن حذرتك أننا...

- أعتذر! أعتذر بحرارة! الحبّ هو أن تعتذر طيلة الوقت. هيلين! الحُبّ هو أن تختطفك أجمل امرأة رأتها عيناك في سيارة صغيرة، بدون سابق إنذار، وتأخذك إلى دار سرورها الواقعة على البحر، وتمشيء معك، يداً بيد، على شاطىء مهجور، تحت أشعة القمر.

- لم يحدث لي شيء كهذا قط.

- هيلين! لا أصدّقك!

- مستر عريان! متى تريد الإفطار؟

- بمجرّد أن يجهز.

في الحديقة، يتّجه إلى الطاولة التي يجلس عليها الأسقف جورج مالوني. يحييه الرجل ببشاشة عفوية صادقة:

- آه! صباح الخير! كيف حالك؟

- بخير. شكراً، السيد الأسقف.

- السيد الأسقف؟! لم يعد هناك متسع من الوقت للألقاب والمجاملات. سمّني جورج.

ـ يسعدني هذا، وأنت، أرجوك، سمّني يعقوب.

ـ يعقوب؟ جيكوب! إسم توراتي. جاء بعد أخيه التوأم مباشرة ممسكاً بعقبه ولهذا سُمّي يعقوب.

ـ لا أعرف شيئاً عن الأخ التوأم، ولكن يعقوب عليه السلام نبيّ من أنبياء المسلمين.

ـ بطبيعة الحال! بطبيعة الحال! هل قلت لك سمّني جورج؟ قلت لك؟ حسناً! حسناً! اشرب قهوتك! قل لي: هل أنت مستعد للموت؟

ـ جورج! نحن في هذا المكان...

يقاطعه الأسقف مبتسماً:

ـ لا نتحدث عن الموت. بطبيعة الحال! هل تعرف قصة هذا المكان، أعني هذه الأمكنة، الهوسبيز؟ لا تعرف؟ هذه الأمكنة بدأت دور ضيافة للمرضى والعجزة، ملحقة بالأديرة. متى حدث هذا؟ قبل قرون طويلة. هل لاحظت أنهم يسمّون المرضى ضيوفاً؟ لاحظت؟ بطبيعة الحال! هذا تقليد من التقاليد التاريخية. الهوسبيز الجديدة تختلف عن القديمة. هنا كل وسائل الراحة. وكل العقاقير الضرورية.

ـ الموت بكرامة!

ـ الموت بكرامة؟ لا! ليس تماماً. هنا لا يقتلونك. أو على الأقل، هذا ما أرجوه. هنا ينتظرون حتى تموت من تلقاء نفسك، أو من تلقاء مرضك على الأصحّ. ويحاولون تجنيبك الألم، الألم

الحتمي على أية حال. الموت بكرامة هو قتل الرحمة. اليوثونيزيا. قتل أولئك الميئوس من شفائهم إنهاءً لعذابهم. لا تزال كنيستنا تعارض الفكرة، ولكن من يعرف ماذا سيحدث مع كنيستنا الإنجليكيه؟ هذه أغرب كنيسة في العالم. تتأقلم مع المتغيّرات بسرعة تفوق سرعة المتغيرات. قساوسة من النساء. وقساوسة من الشاذين. وزواج بين رجلين تباركه الكنيسة. وقسيس يرى أن جهنم مجرد مكان دافىء بعض الشيء. وقسيس يرى أن ليس من الضروري أن تؤمن بالله لكي تكون مسيحياً. وقسيس يرى أن المسيح شخصية خيالية. ما رأيك؟

- السيد.. أعني جورج! هذه أمور تخصّ الدين...

- بطبيعة الحال! أفهم موقفك. لا داعي لأن تعلّق أنت. سوف أعلّق أنا. كنت أشغل منصباً كبيراً في كنيستي، ومع ذلك فأنا معجب بالكنيسة الكاثوليكية، وبكم معشر المسلمين. لا تزالون تتمسكون بالعقائد الأصلية. لا تعترفون بالمتغيرات.

- لا أدري إلى متى سيظلّ ذلك. أخبرنا نبينا محمد عليه السلام أننا سوف نقتفي آثاركم خطوة خطوة.

- حقاً؟! أنا لا أعرف إلا القليل عن الإسلام. هذا شيء مخجل. ما رأيك أن تعطيني بعض الدروس؟ اشرب قهوتك! أي قيمة لدين بلا ثوابت؟ أي معنى لدين يتغير في كل موسم مثل موضات الملابس؟ صدّقني أني أحترم الأصوليين من كل ملّة. ماذا؟ قلت الأصوليين ولم أقل الإرهابيين. الخلط الشائع بين الاصطلاحين يضايقني. أخبرني، يا صديقي، هل أنت متدين.

ـ أنا أؤمن بالله وكتبه ورسله وملائكته وقدره واليوم الآخر والحساب والجنة والنار وأحاول عمل الخير ما استطعت، ومع ذلك لا أستطيع أن أقول إني متدين لأني ارتكبت الكثير من المعاصي.

ـ آه! الخطايا! بطبيعة الحال! كل البشر يولدون في ظل الخطيئة الأصلية. والمسيح لم يصلب إلا ليكفّر بدمائه عن ذنوب البشرية. آسف! آسف! كنت أتحدث عن عقيدتي. لا أودّ جرح مشاعرك.

ـ نحن نؤمن أن الله غفور رحيم، وأن مغفرته تشمل كل الذنوب، ما عدا الشرك.

ـ آه! قلت لك إني أجهل الكثير عن الإسلام. متى سوف نبدأ في الدروس؟

ـ عندما تشاء؟

ـ بعد سنة من الآن؟

يبتسم الرجلان، ويقول الأسقف:

ـ هل أنت خائف من الموت؟

ـ لا.

ـ هذه علامة جيّدة، جيّدة للغاية.

ـ نحن نؤمن أنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. وأنا أحب لقاء الله، حتى قبل مرضي.

ـ هذا شيء ممتاز. ممتاز للغاية. ونحن نعتقد أن الذي يؤمن بالمسيح يحظى بالحياة الأبدية. وأنا متفائل رغم ذنوبي الكثيرة، ذنوبي الفظيعة.

يحاول إخفاء دهشته ويبدو أنه يفشل، ويواصل الأسقف:

ـ لماذا تستغرب؟ أراهنك أن ذنوبي أكثر من ذنوبك.

ـ جورج! كانت لي علاقة مع امرأة متزوجة. لا تتصور مدى تأنيب الضمير الذي أحسّ به. وأسوأ من تأنيب الضمير نفسه أنه يجيء مع فرحة غريبة، مع نشوة لا تكاد تصدق. لم أشعر بالسعادة إلا مع هذ المرأة، وذكراها الآن، تجعلني أسعد الناس. ومع ذلك، ضميري..

ـ آه! كوكتيل مثير، يا صديقي. السعادة الممزوجة بتأنيب الضمير. امرأة متزوّجة، قلت لي؟ ولماذا تعتقد أنه لم تكن لديّ علاقات مع نساء متزوجات؟ كنت شاباً وسيماً ذات يوم.

ـ ولا تزال وسيماً، يا جورج. كم عدد النساء المتزوجات...

ـ يعقوب! أنت وغد! كان هناك العشرات. وربمّا المئات. ماذا؟ أنا أمزح، بطبيعة الحال! لا تذهب، الآن، وتنشر هذه الإشاعات عني. قد تصدّق الطبيبة النفسية وتهاجمني ذات ليلة.

يستغرق الرجلان في ضحك طويل عميق.



بعد الغداء، يستلقي على سريره، ويتناول كتاب «النوم مع

السراب» ويفتحه، كيفما اتفق، ويقرأ:

«كانت البركة تضجّ بأصوات الفتيات الأربع. على حافة البركة كان سالم الزير وجاسم العود يجرعان البيرة ويلتهمان الفتيات بنظراتهما. تنهد جاسم، وقال:

- يا أبو ابراهيم! أين كانت الفتيات الصغيرات الحلوات يوم كنا لا نحتاج إلى الڤياجرا؟

- يا أبو محمد! أنت تعرف قانون «دار السرور». ممنوع الحديث عن السنّ، وعن الزوجات، وعن التجارة.

- طيّب! طيّب! نتحدث عن الفتيات. ألم تشبع من دلال؟ منذ مدّة وأنت تحتكرها. متى سيجيء دوري؟

- دورك؟ دلال صاحبتي. عيب عليك يا أبو محمد.

- صاحبتك؟ وناهد صاحبتي. نتبادل. آخذ صاحبتك وتأخذ صاحبتي.

في هذه الأثناء كانت دلال تقترب منهما وتصيح:

- سلّومي! جسّومي! يكفي كلاماً. هيّا إلى البركة.

يبتسم، ويضع الكتاب جانباً، ويغمض عينيه.



«كانت روضة تجلس بقربه على الرمل. لم يكن هناك سوى أفراد قلائل على الشاطىء رغم دفء الصباح الإبريلي. على بعد أمتار كانت هديل تلعب مع جدتها. كان يتهيّب لقاء أم روضة،

إلا أن روضة أصرّت. وتعرّف عليها. بدأت تعامله كما لو كان جارها في الحيّ منذ سنين: «أهلاً أبو يوسف!». وأحسّ هو أنه يعرفها طيلة حياته: «أهلاً أم روضة!». لا أسئلة ولا أجوبة. الأسرار المتبادلة بين البنات وأمهاتهن، هل يتاح لأيّ رجل أن يعرفها؟ تنظر روضة إلى الأفق، وتقول:

- يا رجل! تصوّر هذا الشاطىء مليئاً بالسابحات العاريات. هل تتسع «دار السرور» لهن جميعاً؟

- لن أجيب على هذا السؤال. لماذا تسمينني دائماً، «يا رجل»؟

- لأنك رجلي.

- ولماذا لا تقولين حبيبي كما تفعل كل النساء؟

- كما تفعل نساء «دار السرور»؟

- روضة! أقسم بالله إذا عدت إلى...

تضحك. وتقترب منه أكثر. وتمسك بيده، وتهمس:

- يا رجل! يا رجل! أنا أسرق هذه اللحظات من الزمن. أغافل القدر. أخادعه. أتظاهر أنني في حالة عادية من الحالات البشرية. في حالة أكل أو نوم أو عمل أو كتابة أو قراءة. في اللحظة التي يكتشف القدر فيها أني في حالة سعادة، في حالة حبّ، في اللحظة ذاتها، سوف يسرقك القدر مني، أو يسرقني منك. في اللحظة التي أقول لك فيها «حبيبي» سوف ينتهي كل

شيء. في الثانية التي أقول لك فيها «أحبك» سوف يزول...

ـ روضة! ما هذه الخزعبلات والخرافات؟

ـ أنت لا تعرف قدري كما أعرفه. لماذا لا تكتفي مني بهذه الكلمة، يا رجل؟

ـ اكتفيت، يا امرأة!

تقبل هديل نحوهما وهي تغرّد:

ـ قو! قو!

تبتسم روضة، وتقول:

ـ تقصد يعقوب.

يحتضن الطفلة، ويقول:

ـ هو! هو! أقصد هديل.

تضحك هديل، وتضحك روضة، ويضحك هو».

❀ ❀ ❀

في المساء، بعد وجبة العشاء التي تناولها في المطعم، يتّجه إلى الصالون فيجد البروفسور أنتوني ميدلاند، بمفرده. يناديه البروفسور:

ـ مستر عريان! تعال! تعال نكمل حديثنا.

يجلس بقرب البروفسور، الذي يقول:

ـ كنا نناقش رواياتك. قلت لي إن اسم روايتك الأولى «الإعصار»؟

ـ «سنوات الإعصار».

ـ ما هو موضوعها؟

ـ شاب قضى أجمل سنوات حياته يعمل لصالح حزب سياسي ثوري، حتى وصل الحزب إلى السلطة، فاكتشف الشاب أن زعيم الحزب تحول بمجرد تولّيه الحكم إلى وحش قاتل، واتضح له أن الحزب الذي كان يؤمن بالمثاليات والقيم لم يكن سوى مطيّة للوحش.

ـ آه! قصة مألوفة. تجربة تتكرّر كل يوم. ولكنها لا تفقد جدتها. ما يهمّ في الأدب هو طريقة المعالجة. المواضيع، في العادة، هي المواضيع ذاتها. أجمل ما كتب عن الديكتاتور، في رأيي، هو كتاب ماركيز «خريف الزعيم الأبوي». كتاب رائع رغم ما فيه من المبالغة، ورغم انزلاقه إلى عوالم سيريالية لامعقولة. أحياناً، يجعلك الكتاب تتعاطف مع الوحش الذي يعمّر قرابة قرنين. ماركيز حصل على جائزة نوبل في الأدب. في رأيي أنه يستحقّها، ولو أنني أحياناً، أتضايق من... من الفنتازيا التي يحشرها... مثل.. مثل.. «قرن من الوحدة».. بالمناسبة، هل قرأت شيئاً لماركيز؟

ـ لا. ولكنني سأحاول قراءة الكتاب الذي يتحدث عن الديكتاتور.

تعبر ملامح الروفسور الجادة ابتسامة صغيرة، ويقول:

ـ إذا وجدتَ الوقت. ماذا عن روايتك الثانية؟

ـ قصة شاب بدويّ مات أبوه، شيخ القبيلة، فجأة، واختارته القبيلة مكان أبيه، رغم صغر سنه. كان التحدّي الأول الذي واجهه هو أن يقود القبيلة المشرفة على الهلاك عطشاً إلى بئر ماء كان يعرف موقعها عندما كان طفلاً صغيراً. الكتاب يتناول معاناته وهو يحاول العثور على البئر.

يصمت البروفسور مفكّراً، ثم يقول:

ـ قصة طريفة. شيخ بدوي؟ موضوع محليّ. لا أعرف ما يماثله في الأدب الإنجليزي. ماذا يحدث في النهاية؟

قبل أن يجيب، تقدم جانيت، وتنظر إليه بعتاب، وتقول:

ـ مستر عريان! ظننت أنك هربت. بحثت عنك في كل مكان. حان ميعاد الحقنة.

يقوم معتذراً من البروفسور الذي يتمتم:

ـ حقنة... أعني ليلة سعيدة! لا تنس أن تخبرني ما حدث لشيخك البدويّ الوسيم.

السيجارة ترسل دخانها من المنفضة. يحدّق في الدخان، ثم ينظر إلى جانيت، ويقول:

ـ جانيت! كيف يمكن أن تجتمع في امرأة واحدة كل المواصفات التي يعتبرها رجل المواصفات المثالية للمرأة؟ أعني كيف يمكن أن تصبح عيناها أجمل عينين، شفتاها أعذب شفتين، نهداها...

- «الجمال في العين التي ترى»، كما يقول المثل المشهور.

- وفي منطقتنا نقول: «القرد في عين أمّه غزال».

- ما هذا المثل الغريب؟! القرد أجمل من الغزال.

- لا داعي للجدل. الفكرة واحدة. العين التي ترى قد تفسّر الإعجاب بالجمال الجسدي. ماذا عن الأشياء الأخرى؟ المرأة التي تفهم كلَّ ما تريد أن تقوله، التي تحسّ بكل ما تحسّ به، دون أن تكون أنت بحاجة إلى الكلام. المرأة التي تعطيك كل شيء، ولا تريد شيئاً. المرأة التي تنسيك، في دقيقة واحدة، سنوات من الألم. المرأة...

- الجواب في العين التي لا ترى.

- عفواً؟

- العين التي يعميها الحب لا ترى سوى الكمال.

- يعميها الحُبّ؟! جانيت! كنت أظن...

- ميعاد الحقنة! قم إلى السرير.

«كانت ترقص له وحده. وينظر إليها مأخوذاً. كل شيء فيها يرقص. وهي لا تكاد تتحرّك. وينظر إليها مسحوراً. لا يثير رقصها أيَّ نزعات حسيّة. يتسلل ألى أعماق روحه، ويقيم عرساً هناك. يتصور بستاناً من النخل يميس. يرى حقلاً من الذرة، يتمايل. يرى روضة أقحوان صحراوية في موسم المطر، تداعب النسيم. من مكان ما، من جهاز التسجيل، أو ربّما من الشاطىء، أو ربّما من القمر، يجيء اللحن وتجيء الكلمات:

«حبيبي! يا حبيبي! كتبت اسمك على صوتي. كتبته في جدار الوقت. على لون السما الهادي. على الوادي. على موتي وميلادي»[1]. وتقترب منه. وتقترب منه أكثر. ويغيب عن الوعي».

❀ ❀ ❀

بعد انتهاء الطقوس الصباحية، يستوقف هيلين التي كانت تدور حول الغرفة تحاول أن تصلح ما أفسدته فوضاه، ويقول:

ـ هيلين! اجلسي! كيف استطاعت أن تخفي كل أثر له؟

تجلس، وتتنهّد:

ـ من هي المقصودة بالسؤال؟ ومن هو الذي اختفى أثره؟ هل كنت تقرأ رواية لأجاثا كريستي؟

ـ هيلين! المقصودة بالسؤال هي حبيبتي. والمقصود زوجها. كنا نلتقي، هي وأنا، في كابينة على الشاطىء. لا بُدّ أن تكون الكابينة ملك الزوج، أو ملكهما معاً، الزوج والزوجة. ولكنّي لم أعثر، قطّ، على أي أثر له في الكابينة. لا قمصان. لا بنطلونات. لا فرشاة أسنان. لا معدات حلاقة. لا شيء. كيف تفسرين هذا؟

---

(١) هذا المقطع من أغنية «زمان الصمت»، من غناء الفنّان طلال مدّاح وتلحينه، وكلمات الأمير بدر بن عبد المحسن. وكل المقاطع التي سترد في أجزاء لاحقة من الأغنية نفسها.

ـ أنا كنت أقابل صديقي في غرفة النوم بعد خروج زوجي مباشرة.

ـ هل كنت تنامين مع بائع الحليب؟

ـ أحياناً، وأحياناً مع السبّاك.

ـ هيلين! أنت امرأة شرّيرة. ولكن ماذا عن حبيبتي؟ كيف استطاعت أن تخفي آثار زوجها؟

ـ ربّما كان المكان مكانها وحدها.

ـ لا أظنّ.

ـ ربّما كان ملك صديقة من صديقاتها.

ـ أستبعد هذا.

ـ لماذا تسألني أنا؟ لماذا لم تسألها هي؟

ـ لأني وعدتها وعداً قاطعاً ألاّ أتحدّث عن زوجها. ألاّ أقول كلمة واحدة عنه. ألاّ أسأل سؤالاً واحداً.

ـ امرأة ذكيّة.

ـ هل تعرفين ما هو أغرب؟ كانت ترفض أن تقول عن زوجها أيّ شيء. أيّ شيء! لم تقل إنها تحبّه. لم تقل إنها تكرهه. هيلين! زوجها يكبرني بعدة سنوات. ومع ذلك، لم تشرح لي سبب زواجها منه. لم تقل كلمة واحدة عن حياتها معه. لم تقل إنها سعيدة. لم تقل إنها شقية. لا شيء! هل سمعت بالثقوب السوداء؟

ـ امرأة ذكيّة جداً، حبيبتك هذه.

ـ هيلين! كانت ترفض أن تسميني «حبيبي».

ـ وماذا كانت تسمّيك؟ صاحب القداسة؟

ـ كانت تسمّيني «يا رجل!».

ـ «يا رجل!». كلمة ظريفة. اسمع يا رجل! الدكتور موريسون في الطريق. ألا ترى من المناسب أن تقوم وتغيّر ملابسك؟

ـ هيلين! لا تتصوّري كم أحبّك.

ـ ما أكذبك، يا رجل! قمْ وغيّر!

يتأمل الدكتور جون موريسون الغرفة بإعجاب ظاهر:

ـ أفخم من أي جناح في أي فندق.

ـ صحيح.

يصمت الطبيب قليلاً، ثم يسأل:

ـ ماذا عنك يا يعقوب؟

ـ أنا بخير، كما ترى.

ـ ألا تشعر بآلام؟

ـ لا. أشعر برغبة شديدة في النوم تزداد يوماً بعد يوم.

ـ النوم يفيدك. ألا تشعر حتّى بآلام خفيفة؟

ـ لا أشعر بأيّ ألم. صدّقني.

ـ هل تعرّفت على بقية النزلاء.

ـ تقصد الضّيوف؟

ـ عفواً! بقية الضّيوف.

ـ علاقتي بالضيوف العشرة ودّية إلا أنني أستلطف، بوجه خاص، ثلاثة منهم...

يقاطعه الطبيب:

ـ الأسقف والبروفسور والطبيبة النفسية.

يسأل بإعجاب:

ـ كيف عرفت؟

ـ لا يتطلب الأمر الكثير من الذكاء. أنا أزور المكان مرّة في الأسبوع، وأعرف معظم الضيوف. كيف تقضي وقتك؟

ـ في الحديقة. في الحديث مع الضيوف. في القراءة. وغالباً مع الذكريات.

ـ ألا تشعر أن ذاكرتك بدأت تضعف؟

ـ تضعف؟! بدأت تقوى. جون! تأتي الذكريات هذه الأيام ملوّنة بالتيكنيكلور.

ـ هذا شيء طيّب.

ـ هل هذا أمر طبيعي؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني.. أنني.. أنني.. موشك.. تعرف ما أقصد.. ومع ذلك لا أحسّ بأي.. أقصد أن شهيتي ممتازة.. أشعر.. أشعر.. لولا الرغبة في النوم.. وصدّقني.. صدّقني لولا شعور.. شعور بتأنيب... شعور.. لقلت إني أعيش فترة من أسعد فترات حياتي.

ـ يعقوب! أعرف، تماماً، ما تقصد. يسرّني أن أسمع كل هذا منك. ولكن الصورة كما أوضحتها لك لم تتغير.

ـ تعني أن الأمور قد تنتكس فجأة؟

ـ هذا، بالضبط، ما أعنيه.

ـ ومتى سيحدث هذا؟

ـ لا بُدّ أنك تذكر جوابي عندما سألتني سؤالاً مماثلاً في العيادة.

ـ أذكر.

ـ إذن، تمتّع بوقتك هنا. لا تفكّر في الإنتكاسة.

ـ جون! هل سبق أن أحببت امرأة كانت ترفض أن تسمّيك «حبيبي»؟

ينظر إليه الطبيب بشيء من الاستغراب، ويقول:

ـ ماذا؟ امرأة؟ لا أتذكّر. لم تكن لديّ قصص حب كثيرة. كنت، دوماً، مشغولاً بعملي ليلاً ونهاراً.

ـ جون! أنت جادّ أكثر من اللزوم. تعال إلى الحديقة معي نبحث عن الثلاثي المرح، ونضحك.

❀ ❀ ❀

تحمل هيلين صينية الإفطار، وتتجه نحو الباب، إلا أنه يستوقفها:

ـ هيلين! اجلسي!

تجلس، أمامه، على المقعد وتبتسم، وتقول:

ـ الامتحان الصباحي! ما هي أسئلة اليوم؟

ـ كانت ترفض أن تأخذ مني هديّة، يا هيلين؟ هل تعرفين السبب؟

ـ آه! المرأة التي تحبها. دعني أسألك: من أي نوع كانت هداياك المرفوضة؟

ـ من كل نوع.

ـ هل تشمل المجوهرات الثمينة؟

ـ تشملها.

ـ الماسية؟

ـ الماسية.

ـ هل جرّبت النوع النقدي من الهدايا؟

ـ جرّبته.

ـ ومع ذلك كانت ترفض كل شيء؟

ـ كل شيء. بلا استثناء.

ـ صديقتك هذه امرأة غريبة بعض الشيء. أنا أقبل أيّ هدية تصلني من رجل. إلا أن كلّ الرجال الذين عرفتهم كانوا، للأسف، بخلاء جداً.

ـ هيلين! لماذا كانت ترفض هداياي؟

ـ لدينا مثل يقول: «لا يوجد غداء مجاني».

ـ هيلين! هيلين! أفهم أن تخاف مغبة القبول في بداية العلاقة. ولكن بعد أن أصبحنا حبيبين. بعد أن أصبحتْ الشيء الوحيد...

تقاطعه:

ـ بصراحة، بكل صراحة، أنا لم أسمع من قبل بامرأة ترفض هدايا ثمينة من صديقها.

ـ والغريب، يا هيلين، أنها كانت تعطيني هدايا، بانتظام.

ـ وهل كنت ترفضها؟

ـ كنت أقبلها بكلّ سرور.

ـ وما هي الهدايا التي كنت تقبلها بكل سرور؟

ـ هيلين! اذهبي إلى دولاب الملابس هناك، وافتحي الدرج الأعلى. أخبريني ماذا تجدين فيه.

تفتح هيلين الدرج، وتقلّب محتوياته، ثم تصفّر:

ـ ما هذا؟ ما هذا؟ ربطات عنق حريرية. خواتم. ساعات سويسرية. أقلام ذهبية. أزارير فضية. هذا متجر صغير. يبدو أنها امرأة كريمة.

ـ كريمة جداً.

ـ مستر عريان! أريد الصراحة. هل أحببتها من أجل ثروتها؟

ـ هيلين أنت امرأة بلا خجل. هل أحبك أنا، الآن، بسبب ثروتك. أحبّك بسبب جمالك الفائق.

تخرج ضاحكة ويداهمه تعب مفاجىء يعيده إلى السرير.

❁ ❁ ❁

«يتسلل ضوء القمر إلى غرفة النوم الصغيرة، وتهمس:

ـ يا رجل! ألا تشبع؟ ألا ترتوي؟

ـ يا امرأة! عندما أحبّك أحبّ كل زهرة في كل حقل. أعانق كل شجرة في كل غابة. أضمّ كل موجة في كل بحر، عندما...

ـ يا رجل! يكفي!

ـ عندما أحبّك أحبّ كل امرأة. هل تغارين؟ كل امرأة! أنت ذلك الثغر النسائي الواحد الذي تمنّى الشاعر بيرون أن يقبّله ويستريح. في عينيك سحر كل العيون منذ بداية التاريخ. في نهديك..

ـ يا رجل! ألا تخجل؟

ـ «يا امرأة! أنت كل بئر شرب منها كل بدوي ظامىء عبر القرون. أنت...

ـ آه! «القطرة الأولى».

ـ أنت كل حلم سهر معه كل عاشق منذ الأزل. أنت...

ـ يا رجل! اسكت!

ـ سكوتي وأنت بقربي أعظم ملحمة كتبها أعظم شاعر.

ـ يا رجل! كيف استطعت أن أنظر إلى رجل قبلك؟ كيف أستطيع أن أنظر إلى رجل بعدك؟ كيف..

ـ احذري! بعد قليل سوف تقولين...

ـ اسكت أنت! اسكت!».

❀ ❀ ❀

يقطع عليه صوت الطبيبة النفسية شروده:

ـ بنساً لأفكارك! أو جنيهاً إذا أردت.

ـ آه! ماري! جئتِ في الوقت المناسب. كنت أفكّر في

الحبّ. ما هو الحبّ، يا ماري؟ أعني ما الذي يجعل رجلاً ما يحب امرأة ما دون نساء العالم كلهن؟ وما الذي يجعل امرأةً ما تحب رجلاً ما دون الرجال جميعاً؟

- ألم أقل لك إن أسئلتك كأسئلة الأطفال، سهلة ولكن الإجابة عليها مستعصية؟

- حاولي.

- هناك عشرات النظريات.

- أعفيني، رجاءً، من كل التحليلات الفرويدية.

- أنت تقتل المحاضرة قبل أنت تولد.

- ماري! لا أصدق أن طبيبة نفسية شهيرة لا تعرف تفسيراً للحب سوى دوافع الجنس الظاهرة والخفيّة.

- لا أحد يعرف تفسيراً للحبّ. فرويد، نفسه، حاول ولم ينجح. وقبله أخفق كل الفلاسفة والشعراء والكتّاب الذين حاولوا. هل تتوقع من عجوز مثلي أن تعرف ما لم تعرفه أعظم العقول البشرية في التاريخ؟

- ماري! لا تقلّلي من قدر نفسك. لا بُدّ أنك قابلت عشرات المرضى الواقعين في الحبّ. ماذا كنت تقولين لهم؟

- قابلت الآلاف، يا عزيزي، من العشاق والعاشقات. وكل حالة تختلف عن أختها. كنت أقول للرجل الذي هجر زوجته بعد أربعين سنة من الزواج ليعيش مع فتاة في الثامنة عشرة إنه لا يحب الفتاة ولكنه يعشق شبابه الذي تعيده الفتاة إليه، مؤقتاً.

وكنت أقول للمرأة التي تخون زوجها الشاب مع رجل في سن أبيها أنها لا تبحث عن الحب ولكنها تفتقر إلى شعور بالأمن والاستقرار. وكنت أقول للفتاة التي تنوي الانتحار لأن نجمها المفُضّل مات أنها لا تعشق الممثل ولكنها تكره نفسها. يعقوب! الأمثلة لا تنتهي.

ـ أريد المزيد.

ـ حسناً! كنت أقول لمعظم مرضاي إنهم أحبّوا بسبب الموقف.

ـ الموقف؟!

ـ الموقف كثيراً ما يوجد ديناميكية تساعد على نشوء الحبّ. المريض يجد لدى الممرضة التي تعنى به الحنان الذي لم يجده عند غيرها. كم عدد المرضى الذين يتزوجون ممّرضاتهم؟ قائد الطائرة يرى المضيفة في ظل ظروف رومانسية حالمة، السفر، والشواطىء، والمدن البعيدة. كم عدد قائدي الطائرات الذين يتزوجون مضيفات؟ رجل الأعمال يرى سكرتيرته بكامل أناقتها، تصغي إليه بتعاطف، ولا تزعجه بمطالب، وتنفّذ رغباته في الحال. كم عدد رجال الأعمال الذين تزوجوا سكرتيراتهم؟ الممثّل يشارك الممثلة الحسناء قصة حب عاصفة بعد قصة حب عاصفة حتى يمتزج الخيال بالحقيقة. كم عدد الممثلين الذين تزوجوا ممثلات؟ أعتقد أنك تعرف المقصود.

ـ أعرف المقصود. ولكن في حالتي لا ينطبق شيء...

ـ آه! حالتك! من يدري؟ قد تكون كل هذه الاعتبارات

قائمة، وقد تكون كلها غائبة. سبق أن أخبرتك أني أؤمن بالحب الذي يولد من النظرة الأولى. لا يوجد تفسير علمي لهذا الحب. يوجد تفسير ميتافيزيقي منذ أيام الإغريق. يولد الإنسان بشطر نفسه، ويعيش حتى يرى الإنسان الذي يولد بالشطر الآخر، وفي لحظة اللقاء يمتزج الشطران، ويجيء الحب.

- ماري! كنت أتوقّع...

- حسناً! هناك تفسير ميتافيزيقي آخر. تناسخ الأرواح. أنت تحب امرأة تراها للمرة الأولى لأنك سبق أن قابلتها قبل ألف سنة في حياة أخرى.

- ماري! أنت تعبثين بي.

- لا أعبث بك. قلت لك إنه لا توجد فروق تذكر بين السحر وعلم النفس.

- أريد أن أسألك سؤالاً ثانياً.

- تفضل! إغتنم الفرصة. حتى عهد قريب كنت أتقاضى أتعاباً مرتفعة مقابل الإجابات.

- كانت روضة، المرأة التي أحبّها، ترفض أن تقبل أي هدية منّي. هل تعرفين السبب؟ ولا تقولي لي إنه لا يوجد غداء مجّاني.

- كنت أوشك أن أقول هذا.

- ماري! هل لديك تعليل؟

- أنا لا أعرف صديقتك. لم أرها. لا أستطيع أن أنطق

اسمها. كيف تتوقّع مني أن أفسّر تصرفاتها؟

ـ هل ينفعك أن تعرفي أنها كانت تؤمن بالخزعبلات والتطيّر؟

ـ مرحباً بها في الجِنس البشري.

ـ أعني أنها كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أن القدر بمجرّد أن يعرف أننا، أنا وهي، في حالة حب سوف يتدخّل. يأخذها مني أو يأخذني منها.

تبتسم الطبيبة ابتسامة حزينة، وتقول:

ـ يعقوب! ألا ترى أن مخاوفها كانت في محلّها؟

ـ كنت أسألك عن الهدايا.

ـ المسألة، الآن، أصبحت واضحة كالشمس.

ـ ماذا تعنين؟

ـ قبولها هدية منك يعني اعترافها بك حبيباً، يعني أنها تعيش حالة حب، يعني أنها تغري القدر بالتدخّل. يعقوب! صديقتك برفضها استلام هدايا الحب اتخذت موقفاً هو أعلى مراتب الحب.

ـ ماري! أنتِ عبقرية! كيف غاب هذا عن ذهني؟ هل أنتِ واثقة أنك لا تريدين أتعاباً.

ـ أتعاباً؟ ماذا أفعل بالنقود، الآن؟

❁ ❁ ❁

بعد الغداء، يستلقي على السرير، ويفتح الصفحة الأخيرة من كتاب «القطرة الأولى»، ويقرأ:

«كانت الأعين تراقبه وهو يحفر. الأعينُ الغاضبة التي تطلّ من الوجوه الغاضبة. بدون أن ينظر، يعرف أن الغضب المخزون قد ينفجر في أيّ لحظة. يعرف السؤال الذي يدور في الرؤوس: هل أخطأنا عندما اخترنا هذا الشاب شيخاً للقبيلة؟ يواصل الحفر. والرجال الموشكون على الموت عطشاً يراقبونه صامتين. ويحفر. ويحفر. فجأة، يشرق وجهه. يحسّ بيده ترتطم بلزوجة متسربة من الرمل الساخن. يدني وجهه من الرمل ويمتصّ بعنف. يشعر بالقطرة الأولى تتسرب من فمه، مباشرة، إلى مكامن الظمأ في جسده، وفي جسد القبيلة».

ينام، ويحلم أحلاماً متداخلة غريبة، لا يوجد فيها شيء واضح سوى وجه روضة.

❁ ❁ ❁

بعد العشاء، وبعد انطفاء السيجارة، تباغته جانيت:

ـ مستر عريان! مالك هذا المساء؟ لم تنطق بحرف واحد. هل أخذت القطّة لسانك؟

ـ القطّة؟ لا. أخذت المرأة التي أحبّها لساني. أخذت عقلي. هذه المرأة تتقمصني. لا أرى أحداً سواها. لا أفكّر في شيء

غيرها. عندما أتكلّم أجد أن كلامي كلّه عنها. عندما أنام لا أحلم إلا بها.

- وهل يضايقك هذا؟

- لا يضايقني. ولكني، أحياناً، أودّ لحظة واحدة لنفسي. لحظة واحدة لا تسكنها روضة.

- روضة؟!

- حبيبتي. الإسم يعني حديقة باللغة العربية.

- حديقة؟! يا له من إسم جميل غريب.

- هل رأيتِ ما أقصد؟ بدأ الحديث كلّه يصبح عنها.

- مستر عريان! حان موعد الحقنة. سوف ترى إذا كان بوسع حبيبتك التسلل إليك بعد الحقنة.

يحسّ بوخزة الإبرة في ذراعه، ويشعر بالخدر ينتشر، بسرعة مذهلة في جسمه. بصعوبة، يرفع رأسه عن المخدّة، ويقول:

- جانيت! مفعول الحقنة الليلة، سريع جداً. هل تغيّر شيء؟ هل بدأتم..

تقاطعه برقّة.

- مستر عريان! أنا لا أتدخّل في ما لا يعنيني. وأنصحك أن تفعل الشيء نفسه. موضوع الدواء يخصّ الأطباء وحدهم. أما

نحن الممرّضات، وأنتم المرضى، فما علينا سوى إطاعة الأوامر. نم الآن!

يطيع دون مناقشة.

۞ ۞ ۞

«كانت بقربه. رأسها بقرب رأسه. تدندن بصوت لا يستطيع أن يسمعه. شيئاً فشيئاً، يرتفع الصوت. يجيئه حلواً نقياً صافياً كخرير الجدول يحمل كلّ ما هو شقيّ وكلّ ما هو سعيد. كلّ ما هو بعيد وكلّ ما هو قريب. كلّ ما هو مستحيل وكلّ ما هو ممكن. «حبيبي! يا حبيبي! كتبت اسمك على صوتي. كتبته في جدار الوقت. على لون السما الهادي. على الوادي. على موتي وميلادي. حبيبي! لو أيادي الصمتْ. خدتني لو ملتني ليل. حبيبي! يا حبيبي»! تنتشي كل ذرة في روحه، ويقول:

ـ حبيبتي! غنّي!

ـ «على لون السما الهادي. على الوادي. على موتي وميلادي».

تصمت وتقول فجأة:

ـ أنا حامل.

قبل أن يفكر، يصرخ:

ـ ماذا قلت؟! ماذا قلت؟!

تبتسم، تنظر إليه، وتقرّب فمها من أذنه، وتهمس:

ـ قلت إني حامل.

هل كان للنبأ أثر الصاعقة؟ لا! الصاعقة تحرق الضحيّة، وينتهي الأمر. كان للنبأ أثر الزلزال الذي يضرب ويستمرّ يضرب. يسلمه من عاطفة إلى عاطفة بلا رحمة. من الزهو إلى الخوف إلى القلق إلى الغضب إلى السعادة إلى الشفقة إلى الحبّ إلى الفضول إلى الحنان إلى الحيرة. يحاول أن يتكلّم، ولا يستطيع. تواصل النظر إليه، مبتسمة. والمشاعر المتناقضة تعصف به وتهزّه من الجذور. بصعوبة بالغة يقول:

ـ روضة! مَنْ...

يسطع في عينيها برق حاد يجبره على السكوت. يصمت عدة دقائق. ويبدأ:

ـ روضة! هل أنا...

يجيء صوتها قاطعاً كالسيف:

ـ وعدتَ! وعدتَ وعداً قاطعاً!

يهمس بصوت متحشرج:

ـ ولكني لا أتحدث.. لا.. لا أتحدث عنه.. أنا فقط.. أنا أريد...

يهوي السيف مرّة أخرى:

ـ أنت تعرف، تماماً، إلى أين سيقود هذا الحديث. لا تسأل هذا السؤال مرّة ثانية إذا كنت تريد أن تراني.

تلاحظ شيئاً ما على وجهه، وتدني فمها، وتقبّله على جبينه، وتقول:

ـ لم أقصد هذا الجزء الأخير. أنت تعرف، يا رجل، أنني لم أقصده. ولكنني أريد أن تعدني من جديد. تعدني أنك لن تسأل...

يقاطعها:

ـ أعدك! أقسم لك!

تقبّله، مرة ثانية، على جبينه، وتنهمر الكلمات من فمه:

ـ هل أنت بخير؟ هل تشعرين بألم؟ هل رأيت الطبيب؟ كيف عرفت أنك حامل؟ هل تستفرغين في الصباح؟

تضحك، وتغرّد كل البلابل في العالم، وتقول:

ـ عرفت أني حامل منذ أسابيع. كما تعرف كلّ امرأة تحمل. ولم أر الطبيب بعد. ولا أشعر بأي ألم. بالمناسبة، سوف تكون طفلة.

ـ طفلة؟ كيف عرفت ما دمت لم...

ـ عرفت لأنها أخبرتني.

ـ من الذي أخبرك؟

ـ الطفلة.

ـ روضة! هل جننت؟

- هل توجد امرأة حامل غير مجنونة؟

- هل تقصدين، حقاً، أن الحمل الذي في بطنك كلمك وقال...

- الطفلة التي في بطني كلمتني وقالت لي إنها سوف تكون طفلة.

- وماذا قالت لك أيضاً؟

- طلبت مني الإمتناع عن التدخين.

- برافو على الطفلة!

- ووعدتها بالإمتناع خلال فترة الحمل فقط.

- وماذا قالت لك أيضاً؟

- طلبت مني أن أبحث لها عن اسم جميل. هل تعرف اسماً جميلاً؟

- زينب. اسم أميّ التي ماتت وأنا طفل رضيع.

- لا أريد أن أسمّي طفلتي زينب.

- لماذا؟

- لأن أمّك كانت امرأة مشاغبة. تركتك رضيعاً وذهبت. ألا يوجد لديك اسم آخر؟

- لا أستطيع، الآن، التفكير في اسم آخر.

ـ حسناً! سوف أختار اسماً من «النوم مع السراب». هناك عشرات الأسماء النسائية.

ـ روضة! هل تصدّقينني إذا أقسمت لك أني أخذت هذه الأسماء من دليل التيلفون؟

ـ دليل التيلفون؟ فكرة جميلة. سوف أبحث هناك. ولكني لا أصدق...

ـ روضة! اسكتي! أقصد اسكتي ثم غني!

يجيء الصوت الساحر. «الهادي... الوادي.. وميلادي». ويزيح الغلالة الوردية عن بطنها. يضع فمه في منطقة ما بين النهدين. ينزل فمه متّجهاً إلى السُرّة، زارعاً القبلات الناعمة في طريقه. يقف فمه عند السرّة. يتّجه يميناً حتى يعود إلى نقطة البداية. من هناك يتجه، يساراً، حتى يصل إلى السرّة. بعد عشرات الدورات الكاملة، ومئات القبلات، يتوقف، وينظر إليها. يجدها مستغرقة في نوم عميق وعلى ملامحها سعادة تبتسم».



يجلس على طاولة الإفطار، ويهاجم التوست بعنف، ويقول:

ـ هيلين! اجلسي! اجلسي!

ـ الإمتحان الصباحي؟ هات!

ـ هل تظنين أن زوجها كان يعرف بما يدور بيننا؟

تفكر الممرضة قليلاً قبل أن تجيب:

ـ لا أدري عن زوجها. ولكن دعني أخبرك عن نفسي. خنت زوجي الأول مع أربعة رجال، ولم يعرف. وخنت زوجي الثاني المأسوف عليه مع خمسة، ولم يشعر.

ـ وماذا عن الثالث؟

ـ لا يوجد ثالث. عندي صديق ولكننا لا ننوي الزواج الآن. إذا تزوجنا مستقبلاً، سوف تكون هناك خيانات جديدة.

ـ هيلين! ها أنذا أعلنك ملكة الخيانة الزوجية.

ـ أنا؟! مقارنة ببعض صديقاتي تستطيع أن تعتبرني ملكة الوفاء الزوجي.

ـ عرفيني عليهن! عرفيني عليهن!

ـ بكل سرور.

ـ ولكن قبل هذا، أخبريني هل تعتقدين أن زوجها كان يعلم؟

ـ هل يعرفك جيّداً؟

ـ رأيته مرة واحدة فقط، لبضع دقائق.

ـ هل كنت تراها بانتظام؟

ـ مرّة كل بضعة شهور.

ـ وكم استمرت العلاقة؟

ـ منذ ليلتنا السحرية على الشاطىء المهجور وحتى الآن

استمرت العلاقة أربع سنوات، إلا قليلاً.

- وخلال هذه المدة لم تكن تراها إلاّ ثلاث أو أربع مرات في السنة؟

- أربع مرّات على الأكثر. كانت ترفض أن نتقابل إلا على فترات متباعدة. كانت تقول إن عالمها يسير في فلكه المرسوم، وعالمي يسير في فلكه المرسوم، وليس من حقنا أن نلتقي إلا في اللحظات القليلة التي يتقارب خلالها عالمانا. كانت تقول إنني لو دخلت عالمها أو دخلت هي عالمي، سيختلّ كل شيء، وينتهي كل شيء.

- امرأة غريبة!

- هيلين! لم أسمع الجواب.

- لا يصعب على المرأة الذكية، على أي امرأة إذا أردت الصدق، أن تنجح في إخفاء لقاء لا يتم إلا مرة كل أربعة شهور عن زوجها، ما لم يكن زوجها شرلوك هولمز.

- إذن، فأنت تعتقدين أنه لم يعرف شيئاً؟

- أنا واثقة. مائة في المائة!

يقوم، ويقبّلها قبلة حارة على جبينها، ويقول:

- هيلين! يا امرأتي المفضّلة! ذات يوم...

تقاطعه ضاحكة:

- الوعود! الوعود!



لا يجد أحداً من أصدقائه الثلاثة في الحديقة، ولا يودّ أن يبقى بمفرده. يتجه إلى الطاولة التي يجلس عليها السير هنري ماكدونالد، ويحيّيه. يرفع السير هنري عينيه عن الجريدة، ويقول بدفء غير متوقّع:

- آه! مستر عريان! صباح الخير! يوم جميل! تفضل! اجلس!

يجلس على المقعد أمامه، ويقول:

- سير هنري! «الفايننشال تايمز»؟ ألا تزال تتابع حركة الأسهم؟

- عادة عمر. والعادات القديمة تموت بصعوبة، كما يقول المثل. وأنت؟ ماذا عنك؟ ماذا تقرأ؟

- لا أقرأ سوى الروايات.

- الروايات؟ كنت أظن أنك تقرأ كتب القانون. أخبرتني هيلين أن لديك أكبر مكتب محاماة في الشرق الأوسط.

- هذه السمينة الثرثارة تبالغ وتكذب. مكتبي من المكاتب المتوسطة.

- كم عدد المحامين العاملين في المكتب؟

- كان هناك ما يزيد على العشرين، طبقاً لآخر إحصاء.

- عدد كبير بالمقاييس البريطانية. ومتى كان آخر إحصاء؟

- قبل سنة. منذ ذلك الحين تركت شؤون المكتب لإبني، واكتفيت بتقديم المشورة إليه كلما طلبها.

- ابنك؟ هل هو محام؟

- درس القانون في القاهرة وباريس ونيويورك.

- آه! محامي العولمة! ما أسعد الرجل الذي يترك عمله لإبنه بعد غيابه.

يصمت السير هنري، ويتنهّد:

- أنا لم أرزق بولد. رزقت ببنتين.

تومض صورة روضة في ذاكرته، وصورة زوجها وهو يتحدث عن الحقائب التي ستطلبها روضة بعد خروجها من المستشفى، يقول:

- النساء، هذه الأيام، يدرن الأعمال بكفاءة قد تزيد على كفاءة الرجال.

- صحيح! صحيح! ولكن.... إبنتي الكبرى ماتت في حادثة اصطدام. كانت في حالة شديدة من السكر.

يشعر بحرج شديد ويودّ لو يتغير مجرى الحديث، إلا أن السير هنري يكمل:

- والابنة الصغرى انتحرت.

- يؤسفني أن أسمع هذا. أشياء مؤلمة جداً.

- هذه هي الحياة. والزوجة ماتت بالجلطة.

- شيء مؤسف.

ـ والآن، يا صديقي، لديّ خمسون مليون جنيه، سوف يذهب معظمها إلى جابي الضرائب. ويذهب الباقي إلى مؤسسات خيرية.

ـ ألا يوجد أقارب؟

ـ يوجد أقارب قذرون لا يستحقّون بنساً واحداً، ولن يحصلوا على بنس واحد.

ـ على أية حال، شيء جيد أن تترك مالك للمؤسسات الخيرية.

ـ شيء جيد؟! الشيء الجيد أن أبقى على قيد الحياة وأتمتع بأموالي بدلاً من أن أكون هنا في هذا المكان الكئيب أنتظر الموت.

ـ سير هنري! جميعنا نذهب. ننتقل من دار إلى دار.

يقاطعه:

ـ مستر عريان! أرجوك! كل يوم أستمع إلى محاضرة من الأسقف المسيحي، ولا أريد محاضرات من الأسقف المسلم. لا أدري إلى أين ستذهبان أنتما، أما أنا فلن أذهب إلى دار أخرى. ستحرق جثتي، ويرمون الرماد في البحر، وينتهي كل شيء.

قبل أن يجيب يرى الأسقف قادماً نحوهما، ويناديه:

ـ جورج! تعال! اجلس ولنحاولْ معاً إنقاذ روح هذا الملحد قبل فوات الأوان.

يجلس الأسقف ويتنهد:

ـ حاولت. حاولت مراراً وتكراراً. إلا أنه حالة ميئوس منها. أعتقد أنه سيقضي الأبدية في مكان دافىء بعض الشيء.

ينظر إلى الأسقف، ويضحكان. يرقبهما السير هنري بامتعاض واضح قبل أن يدفن وجهه في الجريدة.

❀ ❀ ❀

تشعل جانيت السيجارة، وتضعها في المنفضة، وتجلس أمامه مبتسمة، وتقول:

ـ مستر عريان! ماذا لديك الليلة؟

ـ آه! لديّ الليلة قصة من قصص الأطفال أودّ أن تسمعيها، يا صغيرتي، قبل أن تذهبي إلى فراشك.

ـ دادي! دادي! أريد قصّة!

ـ حسناً! اسمعي! في سالف العصر والأوان وُلدت أميرة جميلة في قصر عظيم. كان اسمها فيروز وكان اسم أبيها الملك ألماس وكان يحكم مملكة الزمرّد. كبرت الأميرة فيروز وزاد جمالها. وأقبل الخطّاب من كل مكان. كان هناك ملوك وأمراء وفرسان. وكانت الأميرة تردّ كل المتقدمين. ذات يوم، سألها أبوها الملك ألماس عن سبب رفضها المتكرّر للخطّاب. قالت الأميرة: «يا أبي العزيز! لن أتزوج إلا الرجل الذي يستطيع أن يجيب على أسئلتي الثلاثة». سألها أبوها عن هذه الأسئلة. قالت: السؤال الأول...

يصمت. وتنظر إليه جانيت متوقعة أن يكمل. إلا أنه يستمر في صمته. وتقول جانيت:

ـ دادي! أكمل القصّة!

ـ جانيت! أشعر بتعب مباغت. أودّ النوم. أين الحقنة؟

«كانت الأميرة فيروز تطلّ من شرفتها المرجانية وتقول له:

ـ السؤال الاول: «لماذا دخلت حياتي؟». والسؤال الثاني: «متى تنوي أن تخرج من حياتي؟». والسؤال الثالث: «ماذا أفعل بحياتي بعد أن تخرج منها؟».

قبل أن يجيب. تختفي الشرفة، وتختفي الأميرة. يرى روضة تمسك بيده وهما يسيران على الشاطىء. يقول لها:

ـ روضة! كيف كتبت اسمي على صوتك؟

ـ بالقلم السحري.

ـ لماذا؟

ـ حتى تكون كل كلمة أقولها هي اسمك، يا رجل!

ـ وكيف كتبت اسمي على جدار الوقت؟

ـ كتبته بالقلم الرصاص على كل ورقة من أوراق التقويم.

ـ لماذا؟

ـ حتى يكون كلّ يوم من أيامي لك، يا رجل!

ـ وكيف كتبت اسمي على لون السما الهادي؟

ـ بالنجوم.

ـ لماذا؟

ـ لأراك كل ليلة، يا رجل!

ـ وكيف كتبت اسمي على الوادي؟

ـ بالمطر.

ـ لماذا؟

ـ لأنهمر عليك كل لحظة، يا رجل!

ـ وكيف كتبته على موتك؟

ـ بالقبلة.

ـ لماذا؟

ـ لأني أموت مع كل قبلة، يا رجل!

ـ وكيف كتبته على ميلادك؟

ـ بالضمّة.

ـ لماذا؟

ـ لأني أولد مع كل ضمّة، يا رجل!

فجأة تختفي روضة. تطلّ الأميرة فيروز من شرفتها المرجانية، وتصرخ:

ـ أيّها الحراس! خذوا هذا الرجل واشنقوه. لم يستطع الإجابة على أسئلتي».

❀ ❀ ❀

قبل أن تغادر الغرفة، حاملة صينية الإفطار، تلتفت هيلين إليه، وتقول:

ـ لا تنس أن ابنك سوف يزورك هذا الصباح. أين تريد أن تراه؟

ـ هنا، يا هيلين.

ـ لا بدّ، إذن، أن نتحرك ونلبس. ويستحسن أن نتجنب ارتداء ربطة عنق من الربطات التي أهدتها لنا عشيقتنا التي لا تحبّ قبول الهدايا. حتى لا يلاحظ ابننا اللون الأحمر الغامق ويكتشف أننا كنا...

يقاطعها، وهو يبتسم:

ـ اخرجي، عليك اللعنة!

تخرج وهي تقهقه.

يدخل ابنه، ويقبل جبينه ووجنتيه، ويجلس ويقول:

ـ أبي! كيف حالك؟

ـ كما ترى. أنا بخير والحمد لله.

ـ أصرّت هيفاء على المجيء معي. وأصرَّ كل من حسام وندى. إلا أنني رفضت تنفيذاً لرغبتك.

ـ بلّغ هيفاء تحياتي وأشواقي. وقبّل حسام مائة قبلة، وقبّل ندى ألف قبلة.

بمجرد أن ينهي العبارة تطوف بذهنه صورة غريبة. يرى حفيده حسام، ذا السنوات الخمس، وحفيدته ندى، ذات السنوات الثلاث، يسيران على الشاطىء وبينهما طفلة صغيرة جميلة. تنظر ندى إلى الطفلة وتقول: «هذه عمتي!». وينظر حسام إلى الطفلة ويقول: «هذه ليست عمتي. كيف تكون عمتي؟ هذه طفلة صغيرة. أنا أكبر منها». ينظر إليه ابنه بشيء من القلق ويسأل:

- أبي! هل هناك ما يشغل بالك؟

- لا! أعني نعم! كنت أفكّر في حسام وندى. بالمناسبة، ما هي أخبار المكتب؟

- كل شيء يسير بانتظام.

- هل انتهت اتفاقية شركة الحديد البريطانية؟

- على وشك الانتهاء.

- واتفاقية شركة الغاز الأمريكية؟

- أنهيناها، وسلمناها للوزارة.

يصمت قليلاً، ويقول فجأة:

- يوسف! كم عمرك الآن؟

يبدو الاستغراب على ملامح يوسف، ويجيب:

- وصلت الثالثة والثلاثين قبل أسابيع.

يتنهد:

- آه! كيف تجري الأيام والأعوام! أتذكر يوم ميلادك وكأنّه حدث البارحة. كنا طفلين، أمك وأنا، عندما تزوّجنا. كانت في السادسة عشرة ولم أكن أكبرها إلا قليلاً. كنت في السنة الأولى في الجامعة، في الثامنة عشرة أو نحوها. أصرّ جدك أن أتزوّج ابنة أخيه اليتيمة، ولم أمانع. كنت أعرفها منذ الطفولة. لم يطل عمرها، للأسف. ماتت، رحمها الله، في حمّى النفاس. أيامها، لم يكن في بلادنا أخصائيون. لا تكاد تموت امرأة هذه الأيام بسبب حُمى النفاس. «تعدّدت الأسباب والموت واحد». أمر الله! أصبحتُ أباً في العشرين، وفقدت زوجتي في العشرين. إرادة الله! أصرَّ الوالد، رحمه الله، أن أتزوج مرة ثانية. إلا أن الزواج لم يدم سوى بضعة شهور. وأصرّ أن أتزوج من جديد. ولم يكن الزواج الثالث أطول عمراً من الثاني. وكفّ الوالد، رحمه الله، عن الإصرار، لحسن الحظ.

- أبي! ماذا حدث في الزيجتين؟ لماذا تمّ الطلاق بهذه السرعة؟

- كنت لا أزال طفلاً، يا يوسف. في بداية العشرينات. يبدو أنني لم أكن مستعداً للاستقرار. ويبدو أنه كان هناك تنافر في الطباع. مع أمك، كانت هناك مودة حقيقية. بلغة أيامنا هذه، كان هناك حب. مع الزوجتين هاتين كنت أشعر أني مرغم على الزواج، وأعتقد أن الشعور نفسه كان لدى الفتاتين. تزوجتا بعدي وأنجبتا أولاداً وأحفاداً. هذه الأشياء قسمة ونصيب.

- كنتُ دائماً أودّ أن أسألك لماذا لم تتزوج بعد ذلك إلا

أنني كنت أخجل. هل تسمح لي أن أسألك الآن؟

- وأنا يا يوسف، كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال. ليتني أعرف الجواب! يبدو أنني كنت في انتظار المرأة المثالية. وانتظرت، وانتظرت حتى فات القطار. الخيرة في ما اختاره الله. يكفي أن أراك، وأرى حسام وندى. الحمد لله!

يصمت قليلاً، ويقول:

- كانت أمك جميلة، يا يوسف. جميلة جداً. أجمل من الصورة التي تراها. كان شعرها طويلاً يصل منتصف ظهرها... وكانت... وكانت...

يتوقف مذهولاً وهو يرى صورة زوجته الراحلة تختلط في ذهنه بصورة روضة حتى لا يكاد يدرك الفرق. ينظر إليه ابنه بإشفاق، ويهمس:

- أبي! هل هل هناك..

يقاطعه:

- لا! لا! كنت أفكّر في أمك، رحمها الله. لو رأتك، الآن، لكانت فخوراً بك.

يحمرّ وجه يوسف، ويتمتم:

- رحمها الله! وأطال عمرك! كنت أنوي أن أسافر غداً إلا إذا كنت تريد أن أبقى.

ـ سافر في حفظ الله. وطمئن الجميع. قل لهم إن صحتي ممتازة.

بمجرد خروج يوسف، تدخل هيلين صارخة:

ـ يا له من طبق شهيّ!

يرفع رأسه إليها مستغرباً:

ـ عفواً؟!

ـ ابنك. يا له من طبق شهيّ. أتمنى لو أتذوّقه.

ـ هيلين! هل أخبرك أحد أنك عجوز قذرة؟

ـ جميع الذين رأيتهم، تقريباً. تذكّرت، الآن، أني لم أسألك عن اسم صاحبتك.

ـ روضة.

ـ اسم صعب بعض الشيء. وعمرها؟

ـ هي، من حيث المبدأ، ترفض أن تتحدث عن العمر، عمرها وأعمار الآخرين.

ـ امرأة ذكية جداً!

ـ إلا أن أمّها أخبرتني، هذه السنة، أنها في الثامنة والعشرين.

ـ معنى هذا أنها كانت في الرابعة والعشرين حين بدأت علاقتكما؟

ـ نعم.

ـ مستر عريان! تُحبّ امرأة في سن ابنك؟! يا لك من عجوز قذر!

ـ هيلين! ذات يوم سأخنقك بيديّ هاتين.

تخرج وهي تغنّي:

ـ الوعود! الوعود!

❀ ❀ ❀

يذهب إلى الحديقة، ويتّجه، رأساً، إلى الطاولة التي تجلس عليها الطبيبة النفسية التي تبتسم عندما تراه، وتقول:

ـ إجلس! إجلس! أنا مستعدّة. هل لديك المزيد من الأسئلة؟

فور جلوسه على المقعد، يسألها:

ـ ماري! هل تستطيع المرأة أن تعرف من هو والد طفلها؟

يفاجئها السؤال، وتفكّر قليلاً قبل أن تجيب:

ـ ألم تسمع بالتفرقة بين العلم والإيمان؟ الولد يعرف أن أمه هي أمه فعلاً؛ هذا هو العلم. والولد يعتقد أن أباه هو أبوه حقاً؛ هذا هو الإيمان.

ـ ماري! أنا أسألك سؤالاً جاداً.

ـ حسناً! حسناً! لا بُدّ من استيضاح بعض النقاط. هل

أفترض أن المرأة كانت تنام مع عدة رجال في الوقت نفسه؟

- افترضي أنها كانت تنام مع رجلين.

- وهل أفترض أنه لا يوجد بينهما من هو مصاب بالعقم، أو يستخدم العازل؟

- تستطيعين أن تفترضي ذلك.

- وهل أفترض أن المرأة لا تستخدم أي نوع من أنواع الموانع مع أحدهما دون الآخر؟

- ما أكثر افتراضاتك! تستطيعين أن تقولي ذلك.

- حسناً! لديّ، الآن، من المعلومات ما يكفي للإجابة. هل تريد الوهم أو الحقيقة؟

- أفضل أن نبدأ بالوهم.

- هناك نساء يتصوّرن أنهن يعرفن لحظة حملهن بالضبط، وبالتالي، في حالة كهذه الحالة، يتصورن أنهن يعرفن الرجل المسؤول عن الحمل.

- وماذا عن الحقيقة؟

- الحقيقة أنه يستحيل على المرأة أن تعرف. الوسيلة العلمية الوحيدة للتثبت هي...

يقاطعها:

- الدي. أن. آي.

- تحليل الـ الدي. إن. آي يبين الوالد الحقيقي بنسة خطأ واحد في البليون. حقيقة الأمر، أنه لا توجد نسبة خطأ. النتيجة قاطعة.

- وبدون هذا التحليل؟

- بدون هذا الفحص لا يبقى سوى الوهم. يعقوب! هل تتحدّث عن صديقتك وعنك؟

- نعم.

- ألا تعرف المثل الذي يقول: «ما لا تعرفه لا يضرّك»؟

- أعرف المثل.

- لماذا تريد أن تعرف؟ هل تريد أن تتزوّجها؟

- ماري! المرأة متزوّجة.

- حسناً! هل تنوي أن تطلّقها من زوجها، وتتزوّجها؟

يبتسم، ويقول:

- طافت الفكرة، ببالي، ألف مرة، ولكنني لم أبحثها معها قطّ. ماري! تذكّري أنني عندما قابلتها كنت أعرف أنّي...

- آه! فات الأوان!

- فات الأوان!

- يعقوب! أخبرتك رأي العلم ورأي الوهم. هل تريد رأيي الشخصي؟

ـ بطبيعة الحال.

ـ رأيي أن زوجها هو المسؤول عن الحمل.

ـ وعلى أيّ أساس بنيتِ هذا الرأي؟

ـ على أساس أنه يستحيل على امرأة عاقلة أن تنام معك.

يكتم الابتسامة، ويقول بجدّية:

ـ ولا أنت يا ماري؟!

يضحكان معاً.

❁ ❁ ❁

بعد انطفاء السيجارة، تلتفت جانيت إليه، وتقول:

ـ دادي! دادي! أريد أن أسمع بقية القصّة.

ـ بكل سرور، يا طفلتي الحبيبة. قالت الأميرة فيروز لأبيها الملك ألماس: «السؤال الأول: هل تضمن أنك ستحبّني إلى الأبد؟. «والسؤال الثاني»: هل تضمن أني سأحبك إلى الأبد؟ «والسؤال الثالث»: ماذا ستفعل لو كففت أنا عن حبك أو كففت أنت عن حبي؟». قال الملك للأميرة إنه يتمنى أن تجد خاطباً يملك الردّ على الأسئلة. جاء المزيد من الخطّاب، وسمعوا أسئلة الأميرة، ولم يستطع أحد منهم أن يجيب على الأسئلة. ذات صباح مشرق، دقت الطبول وثار الغبار وجاء موكب عظيم يتقدمه الملك يعقوب العريان ملك مدينة الفضة. وقف الملك أمام شرفة الأميرة والتقت عيناهما. استغرق عناق العينين عدة دقائق. لم تنطق الأميرة

بحرف واحد، وألقت بنفسها من الشرفة. تلقفها الملك يعقوب ووضعها أمامه على الحصان. انطلق الحصان حتى اختفى عن الأنظار.

تنظر إليه جانيت، وتقول:

- نهاية رومانسية حالمة.

- لم تنته القصة، بعد، يا جانيت.

- أريد أن أسمع النهاية.

- ألم يحن موعد الحقنة؟ سوف أروي لك النهاية غداً.

«منذ الصباح الباكر، وهو يذرع جناحه في الفندق كالمجنون. لا يستطيع أن يجلس أو يتوقف. يحس بحرقة العجز القاتل. روضة تعاني آلام الوضع ولا يستطيع عمل شيء. لا يستطيع أن يكون بجانبها. لا يستطيع أن يمسك بيدها. لا يستطيع أن يمنحها شيئاً من القوة، قوة الحب والحنان. ويذرع الجناح، والساعات تمرّ مكبلة ثقيلة. قبيل الغروب، يرن التيلفون ويجيء صوتها متعباً بعض الشيء:

- زينب وصلت. منذ ساعتين.

- زينب؟ أسمّيتها زينب؟!

- طبعاً، يا رجل!

- الحمد لله على سلامتك، وعلى سلامتها. متى أستطيع أن أراك؟

ـ لماذا لا تجيء الآن؟

ـ الآن؟!

ـ الآن، يا رجل!

ـ سوف أكون معك في لحظة.

يقبل جبين روضة، وجبين أمّها، ويقبل وجنتي هديل التي تغرّد:

ـ يعقوب! هذه أختي!

ينظر إلى الإنسانة الصغيرة الوردية التي تنام في مهد بقرب أمّها، ويشعر أن قلبه على وشك الرحيل من مكانه. يقبل الجبين الصغير المجعد. يمد إصبعه ويمسك يدها الصغيرة التي تنطبق على إصبعه. تبتسم روضة التي رأت المشهد، وتقول:

ـ شقية! مثل زينب الكبيرة».



تتأمّل هيلين الصينية، وتنظر إليه بعتاب:

ـ لم تأكل شيئاً. ماذا بك؟

ـ شهيتي ضعيفة هذا الصباح.

ـ لا بُدّ أن تأكل شيئاً.

ـ هيلين! قلت لك...

ـ سمعت ما قلت. لا بُدّ أن تأكل شيئاً.

ـ شربت الشاي.

ـ الشاي لا يكفي. كُل شيئاً!

ـ قلتُ لك...

ـ إختر إما بيضة أو توست.

ينظر إليها بإستعطاف، ولكنها تتجاهل نظرته، وتتناول التوست وتغطّيه بالزبدة ومُربّى الفراولة، وتقول:

ـ كُل! وإلاّ...

ـ إلاّ ماذا؟

ـ وإلاّ هاجمتك جنسياً!

يضحك، ويبدأ في أكل التوست قطعة صغيرة بعد قطعة صغيرة. عندما ينتهي، تسأله:

ـ متى ستذهب إلى الحديقة؟

ـ لن أذهب هذا الصباح.

ـ لماذا؟

ـ أشعر بتعب.

ـ وماذا ستفعل؟

ـ سوف أبقى هنا، وأقرأ.

- لن أسمح لك بالبقاء في السرير.

- سوف أقرأ على المقعد.

- حسناً! سوف أجيء كل ساعة لأرى إذا كنت بحاجة إلى شيء.

- هيلين! لا تتعبي نفسك. لديّ الجرس.

- سوف أجيء بلا جرس. ألا تعرف كم أشتاق إليك؟

تخرج، ويأخذ كتاب «النوم مع السراب» ويفتحه من منتصفه، ويقرأ:

«.. فجأة، صاحت ناهد:

- ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟!

توقف جاسم، ونظر إليها مستغرباً:

- ماذا حدث؟!

- إنظر! إنظر! ألا ترى؟ الدم في كل مكان. والألم لا يطاق. فقدت عذريتي. ماذا أفعل الآن؟ سوف يقتلني أبي.

تركها تصرخ، وذهب إلى غرفة النوم المجاورة، وطرق بابها بعنف. خرج سالم بملابسه الداخلية مذعوراً:

- أبو محمد! خير؟! أزعجتني، وأخفت دلال.

- خبر سار، يا أبو ابراهيم، خبر مدهش!

ـ خير؟!

ـ ناهد!

ـ ماذا عنها؟

ـ فقدت بكارتها. فقدت بكارتها معي. تصوّر! تركتها تصرخ. تركتها غارقة في دمائها.

تجهمّ وجه صديقه، وقال:

ـ ولماذا فعلت ذلك، يا أبو محمد؟ سوف تخلق لنا مشكلة الآن.

ـ مشكلة؟ ولا مشكلة ولا يحزنون. سوف أتزوّجها.

ينظر إليه سالم بذهول:

ـ تتزوّجها؟!

ـ ادهنْ السير يسير. سوف أعطي أهلها المقسوم، وأعطيها المقسوم. وبعد شهرين أو ثلاثة سوف أطلّقها.

ـ وإذا حملت؟

ـ إذا حملت تبقى. أبرك ساعة! تصور يا أبو ابراهيم! رجل في سني يفتضّ مراهقة عذراء! تصوّر! تصوّر! تصوّر!

مضى جاسم يرقص متجهاً إلى غرفته وصديقه يرقبه بذهول متزايد».

يبتسم. ويترك الكتاب يسقط في حضنه. ويتلقّفه، على

الفور، حلم يأخذه إلى «دار السرور» كما وصفها في الرواية. يجد فتاة لم يرها من قبل تقترب منه وتقول:

ـ أنا ناهد. ماذا فعلت يا مجرم؟!

قبل أن يتمكن من النطق تهجم عليه الفتاة وتبدأ في صفعه وركله وهي تصرخ:

ـ أنا حامل! حامل! ماذا أفعل الآن؟ سوف يقتلني زوجي. زوجي لا ينجب. ماذا أقول له؟ ماذا أفعل الآن؟

يحاول الكلام، ولا يستطيع. وتستمرّ الفتاة في الصراخ:

سوف أخبر الشرطة. سوف أخبر زوجي. سوف يقتلك زوجي. سوف أقتلك أنا!

تقترب الفتاة منه، وفي يدها سكين، ويشعر بأنفاسه تضيق، وتضيق.

تنقذه هيلين من براثن الكابوس. تهزّه برفق حتى يستيقظ، وتقول:

ـ كنت تتأوّه في غفوتك.

ـ كان الحلم مزعجاً بعض الشيء، يا هيلين. ماذا تحملين في يدك؟

ـ أريد عيّنة من الدم.

ـ لماذا؟

ـ أوامر الطبيب..

ـ ألم تأخذي عيّنة قبل الإفطار؟

ـ يريد الطبيب عيّنة أخرى.

تنتهي عملية الإستنزاف، وتخرج هيلين بالعيّنة. يتناول «سنوات الإعصار» ويقرأ الصفحة الأخيرة:

«أمسك بصورة الزعيم وأزالها من الجدار ورمى بها على الأرض. وقف يتأمّلها. ثم بدأ يخاطب الزعيم: «أيها القاتل السفّاح! إلى متى سوف تستمر في قتل الأبرياء؟ إلى متى ستظل جاثماً كالكابوس على صدر الشعب؟». يحسّ بقشعريرة حين يرى العينين في الصورة تنظران إليه بكراهية. يبصق على الصورة. ويصرخ: «لن أخافك بعد الآن. سأحطمك!» ترتفع قدمه اليمنى، ويهوي الحذاء على الصورة وتتناثر قطع الزجاج. فجأة، يُفتح الباب ويدخل أربعة من رجال القسم الخاص في الحزب. دون كلمة واحدة، يشهرون مسدساتهم ويطلقون النار. يخرّ على الأرض، مليئاً بالجراح. يرى دمه يسيل ويسيل حتى يغطّي قطع الزجاج المتناثرة، ويسيل ويسيل حتى يغمر الصورة بأكملها. يخرج الرجال الأربعة بهدوء. من الخارج، يأتيه هتاف الجماهير الهادرة: «بالدم والروح نفديك، يا زعيم!». يبتسم وهو يموت».

يقوده إعياء مباغت إلى النوم وإلى حلم جديد. يرى نفسه في محكمة أمام قضاة يرتدون الزيّ العسكري. يسأله رئيس المحكمة:

ـ أنت يعقوب العريان؟

يرد بالإيجاب. ويقول الرئيس:

- أنت الذي ألّفت كتاباً تتطاول فيه على سيادة الرئيس وتحطّم صورته؟

يتمتم:

- مجرد خيال، سيّدي الجنرال، مجرد خيال. ولائي لسيادة الزعيم المنقذ وللحزب الرائد ثابت لا يتزعزع.

يصرخ رئيس المحكمة:

- اخرس! يا قذر! يا خائن! يا مُرْتدّ! يا عميل! حكمت عليك المحكمة العسكرية بالإعدام شنقاً بعد إدانتك بالخيانة فوق العظمى، إهانة سيادة الرئيس.

ينقض عليه جنود يأخذونه إلى مشنقة في ركن القاعة. يحاول التملص من أيديهم بلا جدوى، وهو يصرخ:

- أتوب! بريء! مجرّد كتاب! مجرّد رواية!

تهزّه هيلين، مرة أخرى، ويستيقظ مذعوراً:

- آه! هيلين! أحمد الله أنه كان حلماً.

- ماذا رأيت؟

- رأيت حراساً يأخذونني إلى المشنقة؟

- إلى المشنقة؟! ماذا فعلت؟

- تهجّمت على الزعيم.

ـ تهجّمت على الزعيم؟! ويشنقونك لهذا السبب؟! هنا من يهاجم رئيس الوزراء تزداد شعبيته بين الناس.

ـ هيلين! حاولي أن تفهمي. رئيس الوزراء سياسي عادي جاء إلى الحكم من طريق انتخابات تتحكم فيها المصالح التجارية الفاسدة. الزعيم رجل جاء من أعماق التاريخ. جاء من فترة ما قبل التاريخ. منجزات الزعيم تبقى إلى الأبد. الزعيم إنسان نبت كالوردة الشذيّة من ضمير الكون. الزعيم يمثل الكون بأسره، وأي إهانة له تعتبر إهانة للكون بأسره. هل هناك هرطقة أعظم من إهانة الكون؟

تقاطعه:

ـ أعتقد أنك بحاجة ماسة إلى هذه الحقنة.

تجيء الوخزة. ويتبعها نوم عميق بلا أحلام.

❀ ❀ ❀

تنظر إليه جانيت بقلق:

ـ لم تكد تلمس عشاءك. ماذا حدث لشهيّتك الأسطورية؟

ـ أخشى أنها بدأت تضعف.

ـ هل تريد أصنافاً أخرى من المطبخ؟

ـ شكراً. لا أريد شيئاً.

ـ هل آتيك بكوب من الحليب أو من العصير؟

ـ لا أعتقد أني أستطيع أكل شيء أو شرب شيء. اجلسي واسمعي بقية القصّة.

ـ دادي! كلّي آذان.

ـ أخذ الملك يعقوب الأميرة فيروز إلى مملكة الفضّة، وتزوّجها في حفل باذخ لم تشهد المملكة مثيله في تاريخها كلّه. عاش الزوجان في أسعد حال. وكان حبّ الواحد منهما للآخر يتضاعف كل يوم. إلاّ أن القدر كان بالمرصاد لحياتهما الهانئة. كان الملك يعقوب يصطاد في الغابة عندما فوجئت الملكة فيروز بساحر شرير قبيح المنظر، كريه الرائحة يدخل من نافذة المخدع الملكي وينام بقربها على السرير. حاولت أن تستنجد بالحراس إلاّ أن الساحر وضع إصبعه على فمها فعجزت عن الكلام. قال لها الساحر: «أريد أن تحملي طفلي». حاولت الملكة المقاومة إلا أن الساحر وضع إصبعه على عينها فنامت، وقضى الساحر وطره منها. عندما أفاقت لم تتذكر شيئاً مما حدث. سرعان ما ظهرت عليها أعراض الحمل، وسُرّ الملك سروراً لا يعرف الحدود. حان وقت الولادة وكان الملك يقف مع القوابل والوصيفات في انتظار الوليد. بمجرّد أن رأى الملك الطفل أغمي عليه. كانت ملامح الطفل شبيهة بملامح التيس، وكانت رائحتُه لا تطاق. ما إن رأت الملكة الطفل حتى أغشي عليها بدورها. بعد دقائق أفاق الملك والملكة فإذا بدخان أسود يملأ المخدع ويخرج منه الساحر الشرير. اتجه الساحر إلى الملكة، وقال: «جئت آخذ ابني. وآخذك». صاحت الملكة: «لن أذهب معك! أفضّل الموت!». هنا شهر الملك سيفه وهجم على الساحر، إلاّ أن الساحر أشار بإصبعه إلى السيف، فارتدّ إلى الملك وطعنه في قلبه. خرّ الملك ميتاً وأخذ

الساحر يضحك. اتجه نحو الملكة مرة أخرى، وقال: «هيا! هيا معي! مات زوجك! أنا، الآن، زوجك». صرخت الملكة: «أفضّل الموت! أفضّل الموت!» قهقه الساحر وأشار إلى السيف الذي انطلق من قلب الملك إلى قلب الملكة، وقتلها. تناول الساحر الشرير طفله وخرج من النافذة وصدى ضحكاته يتردد في كل مكان في القصر. جانيت! انتهت القصة!

يأتيه صوت جانيت متهدجاً بالبكاء:

ـ مستر عريان! هذه قصة رديئة! رديئة جداً! جداً جداً!

ـ آسف!

ـ ما هذه النهاية المرعبة؟ قصص الأطفال لا تنتهي نهايات كهذه. هل الروايات التي تكتبها من هذا النوع؟

ـ لا، يا عزيزتي، ولكن الروايات التي أعيشها من هذا النوع.

تخرج جانيت وهي تجفّف دموعها، وتعود بعد دقائق، وتطلب منه أن يستلقي على السرير:

ـ قبل أن أعطيك الحقنة أريد عيّنة من الدم

ـ مرة أخرى؟ ما حكايتكم مع الدم؟ هل تستضيفون دراكيولا؟

ـ كيف عرفت؟ سوف يصل بعد قليل. لا تخف، سوف أضع أزهار الثوم على باب الغرفة.

تأخذ شيئاً من دمه، وتمنحه، بالمقابل، شيئاً من المورفين، ويستسلم للمخدر.

❁ ❁ ❁

«كان يتأمّلها تُرضع زينب. الثدي الوردي المستدير الممتلىء يقترب من فم الطفلة. ينفتح الفم ويطبق على الحلمة. ويمتصّ بشبق. وتسيل قطرات من الحليب على جانبي الفم الصغير. وينظر كالمسحور. تختفي روضة وزينب. يرى أمامه بحيرة شاسعة من الحليب يشرب منها كل أطفال العالم الجائعين. يختفي المشهد. يرى نفسه في صحراء قاحلة تغيم سماؤها، فجأة، وتمطر حليباً. تتحول كل قطرة بمجرد ملامستها الرمل إلى أوزَة بيضاء تعود إلى السماء. يعود إلى الصالون الصغير. يرى ثدي روضة يتحوّل إلى رمّانة حمراء هائلة. يُفتح باب في الرمانة ويدخل إلى قلب الرمّانة ويتمشى حتى يقف أمام ينبوع يتدفّق بالحليب الساخن. يختفي المشهد، ويرى أمامه جلجامش يناوله إبريقاً مليئاً بالحليب ويقول: «أنكيدو! اشرب! اشرب! وجدت إكسير الحياة. اشرب ولن تموت». يختفي المشهد، ويرجعه صوت روضة إلى الصالون الصغير:

ـ يا رجل! ماذا أصابك؟ ألم تر امرأة ترضع طفلتها من قبل؟

ـ لا. أعني لا أظن. أعني لا أتذكّر. أعني لا.

تبتسم روضة، وتعيد الطفلة النائمة إلى مهدها. تخرجُ الكلمات من فمه قبل أن يفكّر:

ـ هل بقي شيء؟

تنظر إليه مستغربة، ويشعر بشيء يحرق وجنتيه، ويصمت. إلا أنها تواصل النظر إليه، ويقول:

ـ هل بقي شيء من الحليب؟

تضحك روضة، وتقول:

ـ أنت فضولي، يا رجل! تعال!

ـ ماذا؟

ـ تعال! تعال هنا!

يقترب منها، ويجلس على ركبتيه، وتمدّ يدها، وتقرّب وجهه من نهدها الأيمن. تضع عينه بمحاذاة الحلمة، وتهمس:

ـ إنظر بنفسك!

فجأة تضغط بيدها على النهد، وينطلق خيط من الحليب الدافىء إلى عينيه. يتراجع إلى الوراء، مذهولاً، وهو يصرخ. تضحك روضة، وتضحك. تمرّ قطرة حليب قرب فمه. يصطادها بلسانه، ويتمتم:

ـ جلجامش! هل تكفي قطرة واحدة لشفائي؟

تصمت روضة، وتتجهم أساريرها، وتسأله:

ـ ماذا قلت، يا رجل؟ ماذا قلت؟

يصمت. ويعلو صوتها:

ـ قلت شيئاً عن الشفاء. أيّ شفاء؟! هل أنت مريض، يا رجل؟!

تخرج الكلمات من فمه، متردّدة، متثاقلة:

ـ روضة! شرد ذهني. تصورت نفسي أعيش ملحمة جلجامش. سمعت عن جلجامش؟ الأسطورة. البطل الذي يبحث عن إكسير الحياة الدائمة ليعيد صديقه أنكيدو إلى الحياة.

بدون أن تتكلّم، تقرّب وجهه من النهد. وتتحوّل الحلمة إلى فراشة تطير به إلى غابة خضراء. بين الأشجار يرى جلجامش في انتظاره، وفي يده الإبريق يشرب، ويحس بكل قطرة تتغلغل في عروقه، وتبثّ البُرء معها. قبل أن يغيب عن الوعي يسمع صدى تأوهات ناعمة قادمة من مكان بعيد».

❁ ❁ ❁

ينتهي، بصعوبة شديدة، من أكل البيضة التي أجبرته هيلين على أكلها. تبتسم هيلين مشجّعة، وتقول:

ـ لديك زائر هذا الصباح.

لا تكاد تنهي جملتها حتى يدخل الدكتور موريسون وتخرج هي. يجلس الطبيب أمامه، ويبتسم:

ـ صباح الخير، يا صديقي.

ـ صباح الخير، يا جون. ما هذه المفاجأة السّارّة؟ لم أكن أتوقّعك اليوم.

ـ آسف! كان علي أن أخبرك إلا أنه صدف أن كنت في المنطقة وقررتُ التوقف لرؤيتك.

ـ جون! نحن صديقان منذ سنوات. هل تعتقد أن بوسعك خداعي بهذه السهولة؟

ـ لا ضرر من المحاولة.

ـ والحقيقة؟

ـ الحقيقة أن الأمور بدأت تسوء. الكريّات البيضاء ارتفع عددها فجأة إلى...

ـ أعفني من التفاصيل الطبيّة.

ـ حسناً! دخل المرض مرحلة حرجة. ألم تلاحظ؟

ـ لاحظت أني فقدت شهيتي. وأن قدرتي على التركيز بدأت تضعف. وأن نومي أصبح مليئاً بالكوابيس.

ـ كل هذه أعراض جانبية للأدوية والمسكنات. ألا تشعر بألم؟

ـ أشعر أن الحركة بدأت تصبح صعبة. مؤلمة بعض الشيء إذا أردت الحقيقة.

ـ سنضطر إلى زيادة الجرعات.

ـ وماذا سيحدث عند زيادتها؟

ـ سوف تزداد رغبتك في النوم. وسوف تقل قدرتك على

الحركة. ستجد نفسك مضطراً إلى البقاء في السرير معظم الوقت.

ـ والموعد النهائي؟!

ـ يعقوب! يعقوب!

ـ نحن نتحدث عن أيام، أليس كذلك؟

ـ أخشى أن هذا صحيح.

ـ ويجب أن آخذ كل يوم كما يجيء، وأعيشه حتى الثمالة.

ـ هذه هي النظرة الصحيّة.

ـ الصحيّة؟!

يزول التوتر، بغتة، ويضحك الصديقان.

❀ ❀ ❀

ينظر إلى هيلين كما ينظر تلميذ إلى أستاذه الحازم ويقول:

ـ أكلت من أجلك بيضة كاملة، ونصف التوست.

ـ أشكرك.

ـ الشكر لا يكفي. لا يوجد إفطار مجاني. اجلسي!

ـ هل هناك أسئلة جديدة؟

ـ لا. ولكنني أريد أن أروي لك المزيد من قصّتي مع روضة. هل قلت لك إنها أنجبت طفلة جميلة.

ـ لا أذكر. قد تكون أخبرتني ونسيت.

ـ حسناً! أنجبت طفلة جميلة سمّتها زينب. اقترحتُ الإسم عليها لأنه اسم أمّي، وأطلقَتْهُ على طفلتها. كان لديّ شعور داخلي غريب أن الطفلة ابنتي. إلاّ..

تقاطعه الممرضة السمينة:

ـ ألم تقل لي إنها متزوجة؟ ألم تكن تنام مع زوجها؟ كيف يمكنك أن تعرف...

يقاطعها بدوره:

ـ هيلين! لم أقل إني أعرف. قلت إنه كان لديّ شعور قويّ. وكانت روضة ترفض الحديث عن الموضوع نهائياً وتغضب إذا حاولت إثارته. حقيقة الأمر، أنها هدّدتني بالامتناع عن مقابلتي إذا أثرتُ السؤال. لم تكن لديّ وسيلة للتثبت سوى...

ـ الدي. إن. آي.

ـ هيلين! أنت فلتة من الفلتات.

ـ وماذا...

ـ اسمعي القصّة! كنا في مدينة ألعاب، روضة وأمها وهديل، إبنة روضة الكبرى، وزينب وأنا. كنا نتنقل بين مختلف الألعاب، من المراجيح، إلى السيارات الكهربائية، إلى الطائرات الصغيرة. كانت زينب تركض، أمامنا، عندما عثرت وسقطت. بدأ الدم ينزف من ركبتها، وبدأت تبكي. أسرعت إليها، وضممتها وربطت الجرح الصغير بمنديلي الأبيض. سرعان ما توقف النزيف. وعادت زينب تجري وتضحك. وأعدت المنديل

إلى جيبي. في اليوم التالي، كنت في لندن وأعطيت الدكتور موريسون المنديل الأحمر، وعيّنة من دمي وطلبت منه أن يرسلهما إلى أفضل مختبر لتحليل الدي. إن. آي.

ـ يا لك من مخطّط ماكر! وماذا كانت النتيجة؟ هل تبين أنها ابنتك؟

ـ هيلين! أشعر، بغتة، بإرهاق شديد، ساعديني على الذهاب إلى السرير.

بمجرد أن يستلقي على السرير يغفو. ثم يفيق. وبين النوم واليقظة يعود إلى المشهد في عيادة الدكتور موريسون بكل تفاصيله. يرى الطبيب يناوله مظرفاً مغلقاً ويقول:

ـ تقرير الدي. إن. آي. أؤكد لك أنني...

ـ أعرف أنك لم تقرأه، يا جون. هاته! سوف أقرأه فيما بعد.

يضع التقرير في جيبه، ويقول:

ـ جون! أنت لم تطلب مني المجيء حالاً من الوطن لتعطيني هذا التقرير. ماذا حدث؟

ـ يعقوب! أخشى أن لديّ أخباراً سيئة.

ـ كنا، أنت وأنا، نتوقّع هذه الأخبار منذ ست سنوات.

ـ كان المرض، خلال الفترة الماضية، في حالة سبات. كان وضع الكريّات البيضاء طبيعياً. إلاّ أن المرض استيقظ من سباته،

الآن. أثبت الفحص الأخير أن الكريات البيضاء ارتفع عددها من. . .

ـ جون! دعنا من عدد الكريات! هل تريد أن تقول إني وصلت إلى المرحلة النهائية من المرض؟

ـ أخشى أن هذا هو ما أردت أن أقوله.

ـ وكم بقي لي من وقت؟

ـ يعقوب! الله، وحده، يقرّر متى نحيا ومتى نموت. أنا مجرد طبيب.

ـ حسناً! سوف أعيد صياغة السؤال. في الأحوال العادية، ومن تجربتك الطبيّة، ما هي الفترة التي تستغرقها هذه المرحلة؟

ـ بضعة أسابيع.

ـ قرابة شهر أو شهرين؟

ـ أو ثلاثة. أو أربعة. لا أعرف الجواب. صدّقني!

ـ أصدّقك. جون! أود قضاء الأسابيع الأخيرة في هوسبيز. لا داعي لتحمّل الألم إذا كان بالإمكان تجنّبه.

ـ قرار صائب. هناك مكان في ضواحي لندن أشبه ما يكون بفيلا خاصة. الرعاية فيه ممتازة ولا يوجد سوى عدد محدود من. . من. .

ـ من الزبائن.

- من الزبائن. سوف أرتّب كل شيء. متى تريد الدخول؟

- سوف أعود الآن، إلى الوطن لإنهاء الأمور المُعلّقة. سعيد هو الرجل الذي يموت بلا أمور معلّقة. وفي طريق العودة سوف أتوقف لقضاء يوم أو يومين.. مع.. مع.. مع..

يبتسم صديقه، ويقول:

- مع بعض الأصدقاء؟

يبتسم، بدوره، ويقول:

- مع بعض الأصدقاء.

يفتح عينيه، ويرى هيلين واقفة تحمل الحقنة أمامه، ينظر إليها بغضب مفتعل، ويقول:

- هيلين! أنت مثل الوصيف الغبيّ الذي يوقظ اللورد من سباته العميق ليعطيه القرص المنوم.

- أوامر الطبيب.

يكشف عن ذراعه الأيمن، ويقول:

- تفضلي! كوني ضيفتي!

- قبل أن أعطيك الحقنة لا بُدّ أن تخبرني ما حدث في موضوع التحليل. لم تكمل القصّة.

- آه! هيلين! القصّة؟ يا لك من امرأة سمينة شهوانية فضولية! حسناً! حسناً! هذا ما حدث. خرجت من عيادة الدكتور

موريسون وفي جيبي تقرير الـ دي. إن. آي، وفي قلبي صراع لا يمكن وصفه، صراع لو طال لأدى الى إصابتي بالفصام. هل أفتح المظرف وأقرأ؟ أو أتخلّص من المظرف دون فتحه؟ هيلين! لو كنت مكاني ماذا كنت ستفعلين؟

ـ هل يحتاج الأمر إلى سؤال؟ كنت سأقرأه بلهفة.

ـ هذا هو القرار الطبيعي في الظروف الطبيعية. ولكن فكّري قليلاً، يا هيلين! أين الظروف الطبيعية؟ هنا رجل سوف يموت بعد أسابيع قليلة. ماذا يستفيد لو عرف أن الطفلة ابنته؟ ماذا بوسعه أن يفعل؟ تصوري التعقيدات التي ستنفجر.

ـ لم أنظر إلى المسألة من هذه الزاوية. ماذا فعلت بالتقرير؟

ـ أحرقت المظرف دون أن أفتحه.

ـ ماذا قلت؟!

ـ أحرقت المظرف دون أن أفتحه.

ـ مستر عريان!...

يقاطعها:

ـ هيلين! أرجوك! سميني يعقوب. آن لنا أن نبدأ قصة حبّنا المؤجّلة.

ـ مستر... أعني يعقوب! أنت رجل... ماذا بوسعي أن أقول؟ أنت رجل غريب بعض الشيء. حقيقة الأمر أنك لا تقلّ

غرابة عن صديقتك. هات ذراعك!

❁ ❁ ❁

«تسترد أنفاسها بين القُبل الطويلة وتقول:

ـ عدت مبكّراً، يا رجل! لم أكن أتوقعك إلا بعد شهرين، كالعادة. ما القصة؟

ـ ألا تريدين رؤيتي؟!

ـ أريد رؤيتك، يا رجل!، وأريد الصراحة.

ـ لديّ رحلة طويلة. رحلة حول العالم تستغرق بعض الوقت. وأحببت أن أراك قبلها.

ـ رحلة حول العالم؟! منذ متى كُنتَ من عشّاق السياحة؟

ـ رحلة عمل، يا امرأة!

ـ رحلة عمل حول العالم؟!

ـ رحلة طويلة، يا امرأة، والسلام!

ـ وعليكم السلام! متى ستسافر؟

ـ غداً صباحاً.

ـ لدينا إذن قرابة...

ـ يوم وليلة.

ـ حسناً! تعال نتمشّ على الشاطىء.

بقرب البحر جلست أم روضة على الرمل تلعب مع هديل وزينب. رأته هديل وأخذت تصرخ:

ـ يعقوب! يعقوب!

نهضت زينب واندفعت تجري إليه، وتردّد:

ـ قو! قو!

يقبّل الطفلتين، ويعانق الجدة، ويستأنف السير مع روضة. فجأة تلتفت إليه: وتقول:

ـ ماذا قال جبران، يا رجل؟

ـ قال أشياء كثيرة.

ـ ماذا قال عن الأولاد؟

ـ «أولادكم ليسوا أولادكم. إنهم أبناء الحياة، وبناتها. الحياة التي تشتاق إلى نفسها». لا أذكر البقيّة.

ـ «إنهم يجيئون عبْركم، ولكنهم لا يجيئون منكم. ومع أنهم معكم إلا أنكم لا تملكونهم».

ـ لم أكن أعرف أنك تحبين جبران.

ـ أحفظ «النبي» كاملاً، يا رجل!

ـ لم يتزوّج جبران ولم ينجب. كلّ ما يقوله عن الأولاد مجرّد خيال.

ـ ربّما. وربّما كان خياله أصدق من الحقيقة.

تتوقف، وتشير إلى مبنى بعيد، وتقول:

ـ هل ترى ذلك الفندق؟

ـ السندباد. ماذا عنه؟

ـ سوف نتغدّى هناك اليوم.

ـ روضة! ولكن...

ـ يا رجل! أنا أدير محلاً تجارياً كبيراً وكثيراً ما أتغدى وأتعشى مع مدراء الشركات التي أتعامل معها. وفوق ذلك، لن يلاحظ أحد شيئاً. سنأخذ أمّي والطفلتين.

ـ حسناً! سوف نتغدّى في السندباد.

ـ وسوف أدفع أنا الحساب.

ـ روضة!...

ـ لا تغضب! تستطيع أن تدعوني على العشاء.

ـ العشاء؟ كنت أعتقد أنك ستعودين...

ـ اعتقادك خاطيء. سوف نبقى الليلة هنا معاً حتى الصباح.

ـ سوف أطبخ العشاء بنفسي.

ـ أنت؟!

ـ أنا!

ـ ماذا سوف تطبخ؟

ـ ماذا يوجد في المطبخ؟

ـ لا يوجد في الثلاّجة إلا الماء والمرطّبات والفواكه.

ـ سوف أطبخ أرزاً بالسمك. أحتاج إلى بعض المواد الخام.

ـ ماذا تريد؟

ـ الارّز والملح والطماطم والبصل والفلفل الذي يحرق.

ـ الذي يحرق؟!

ـ الذي يحرق.

ـ سوف أطلب من أمّي أن ترسل لنا هذه الأشياء مع سيارة أجرة حين تعود إلى العاصمة. ماذا عن السمك؟

ـ سوف نشتريه من صياد من الصيادين الذين يرجعون بعد الغروب.

ـ وإذا لم نعثر على سمك عندهم؟

ـ يا امرأة! يا امرأة! الله كريم، وهدايا البحر كثيرة.

بدون أن يحسّ يبدأ يدندن. ثم يرتفع صوته قليلاً «حبيبي! يا حبيبي! كتبت اسمك على صوتي. كتبته في جدار الوقت. على لون السما الهادي. على الوادي. على موتي وميلادي».

ـ صوتك جميل، يا رجل!

ـ كيف إذن لو سمعتني أغنّي في الحمّام؟

ـ قل لي! كيف كتبت اسمي على صوتك؟

ـ بالحبر العادي، يا امرأة!

ـ لماذا؟

ـ لأتحاور معك طيلة الوقت.

ـ وكيف كتبت اسمي على جدار الوقت؟

ـ جدار الوقت هو الساعة، يا امرأة! يرتطم الوقت بها كما يرتطم بالجدار. انظري!

يخلع ساعته ويناولها روضة. تتأمل فتجد حرف الراء في موضع كل رقم من الأرقام. تبتسم، ويقول:

ـ انظري ظهرها!

تتأمل ظهرها وترى كلمة «روضة» منقوشة بالذهب على السطح الفضيّ.

ـ أنت مجنون، يا رجل! لماذا فعلت هذا؟

ـ لأسرقك من الوقت.

ـ وكيف كتبت اسمي على لون السما الهادي؟

ـ بالغيوم السوداء.

ـ لماذا؟

ـ لأذكّر نفسي بغياب الشمس.

ـ هذه فكرة مريضة، يا رجل! كيف كتبت اسمي على الوادي؟

ـ بالصخور.

ـ لماذا؟

ـ حتى لا يجرفك سيل الوقت.

ـ وكيف كتبت اسمي على موتك؟

ـ بالدموع التي لا تسيل؟

ـ لماذا؟

ـ أخاف أن تتسربي مع الدموع.

ـ وكيف كتبت اسمي على ميلادك؟

ـ بالحليب.

ـ لماذا؟

ـ لأن الحليب إكسير الحياة الدائمة، يا امرأة!

❀ ❀ ❀

يفتح عينيه، ويرى هيلين وجانيت على جانبي السرير. ينظر إليهما باستغراب، ويقول بصعوبة:

ـ ماذا تفعلان معاً؟ هل نحن في الصباح أو في المساء؟

تقول هيلين شيئاً لا يفهمه، ويعود إلى النوم.

❀ ❀ ❀

«تنظر إليه بحنوّ، وتقول:

ـ آن أن تعود الطفلتان، يا رجل!

يعانق أم روضة. ويقبّل هديل. وتقترب زينب. وتتعلّق به. يرسو وجه الطفلة الضاحك على وجهه. وعطر الآيسكريم الذي أكله معها يملأ أنفه. ويضمّها. وهي تضحك. تضحك. تضحك. وهو يهمس في أذنها: «أحبّك! أحبّك! أحبّك!» وتسيل

دموعه. تغسل وجهها وتزيل بقعة الآيسكريم التي لا زالت بقرب فمها. يجيء صوت روضة هادئاً حاسماً:

- يكفي، يا رجل!».

❀ ❀ ❀

تجفّف جانيت دموعه، وتسأله:

- لماذا تبكي؟ هل حلمت حلماً مزعجاً؟

- أعتقد أنني رأيت.. حلمت... تذكرت.. ورائحة الآيسكريم.. ما هذه الآلات التي تحيط بي من اليمين واليسار؟

- أوامر الطبيب.

- ماذا حدث؟ لماذا... لماذا... أعجز عن... وهذه الإبرة المزروعة... في عرقي.. تؤلمني... لماذا...

يأتيه صوت جانيت من كهفٍ ناء:

- نم الآن! نم!

❀ ❀ ❀

«يقطّع البصل في المطبخ الصغير، وروضة ترقبه بإعجاب:

- لم أر أحداً يقطع البصل مثلك، يا رجل! حتّى أمّي!

- شكراً.

ينتقل من البصل إلى الطماطم. وتقول:

- والطماطم؟! أين تعلمت هذا كله؟

- كنتُ عازباً لمدة ثلاثين سنة، يا امرأة!

ـ وتعلمت الطبخ في «دار السرور»؟ وهل أعجب طبخك الزائرات الفاتنات؟ وهل تلقيت الإكرامية، نقداً أو عيناً؟

يقذفها بحبة طماطم، تتلقفها وتبدأ في التهامها، ويقول:

ـ تذكري أن السكين في يدي!

تضحك من الأعماق وهي تقذفه في وجهه ببقايا حبة الطماطم.

❀ ❀ ❀

بمجرد أن يفتح عينيه، يرى أمامه الدكتور موريسون. يقول مستغرباً:

ـ جون! لماذا... ماذا تفعل... ماذا حدث؟ لماذا...

يقول طبيبه أشياء يسمعها ولا يفهمها ويعود إلى النوم.

❀ ❀ ❀

يصحو بعد منتصف الليل فلا يجدها بقربه على السرير. يخرج إلى الشاطىء. يراها جالسة على الرمل، عارية إلاّ من غلالة النوم الشفافة. يقترب منها، بهدوء، ويضع رأسه على حجرها. تعبث أصابعها بشعره، وتبدأ تغني:

ـ «حبيبي! يا حبيبي! أنا عمر انتظاري لك. لا تحرمني حياتي لك. حبيبي! يا حبيبي!».

تصمت، ويهمس:

ـ حبيبتي! غنّي!

يرتفع صوتها العذب شيئاً فشيئاً:

- «وترحل. صرختي تذبل. في وادي لا صدى يوصل. ولا باقي حنين. وترحل».

ينظر إلى وجهها الشاحب تحت القمر، ويقول:

- لم تغنّي هذا الجزء من قبل.

- كنت أخادع الرحيل، يا رجل!

- ولماذا غيّرت رأيك؟

- ما جدوى المخادعة، الآن؟ أعرف أني لن أراك بعد الليلة، يا رجل!

- روضة! ما هذا السخف؟

- رأيت المستقبل في حلم، يا رجل!

- أنت وخرافاتك. متى رأيت الحلم؟

- قبل دقائق. قبل أن أخرج.

- ماذا رأيت؟

- هل من الضروري أن تعرف؟

- ما جدوى المخادعة، الآن؟

- رأيت أني في زورق مع هديل وزينب. في البحر بقرب الشاطىء. هذا الشاطىء. وكنت أنت تسبح من الشاطىء متجهاً إلى الزورق. وفجأة يهاجمك شيء لا نراه. تختفي أنت تحت الماء، وتطفو بقعة من الدم علي وجه البحر. وتصرخ زينب: «بابا! بابا! بابا!».

ـ ماذا قالت زينب؟!

ـ سمعتني يا رجل!

ـ أضغاث أحلام. أكلة السمك كانت ثقيلة. مجرد كابوس. لا تهتمي به.

ـ أنت لا تعرف أحلامي، يا رجل! حلمت بك ذات ليلة ورأيتك في الصباح في المتجر.

ـ كنت تقرأين روايتي وكان العقل الباطن...

ـ لن أراك بعد الليلة، يا رجل!

فجأة، يحسّ بدمعة ساخنة تسقط على وجهه. ينهض من حجرها، ويجلس بقربها، ويضمّها، ويهمس:

ـ روضة! روضة! أرجوك! لم أرك قطّ، تبكين، ولا أريد أن أراك تبكين الليلة.

ـ الدمعة الأولى والأخيرة، يا رجل!

يقبّلها. وتقبّله. ويلتصق بها. وتلتصق به. وتهمس في أذنه:

ـ هنا يا حُبّي؟!

لا يصدق أذنيه، ويسألها:

ـ ماذا قلت؟!

ـ قلت: هُنا، يا حُبّي؟!

ـ هنا، يا عمري! هنا، على شاطئنا، بقرب بحرنا، تحت

قمرنا،هنا، يا أغلى امرأة، تنتهي أغنية البجعة».

❀ ❀ ❀

يفيق، ويرى ضباباً كثيفاً يملأ الغرفة. يحاول أن يحرك ذراعه فيشعر بوخزة مؤلمة. شيئاً فشيئاً، ينجلي الضباب. يرى يوسف أمامه. يحاول أن يتكلم فلا يستطيع. يشير إلى أنفه. يظهر الدكتور موريسون من مكان ما ويزيل أنبوباً من أنفه. ومع ذلك لا يستطيع أن يتكلّم. يشير إلى فمه. يقترب الدكتور موريسون وينزع أنبوباً ثانياً من فمه. ينظر إلى ابنه، ويقول:

- يوسف!.. ماذا... ماذا.. لماذا لم تسافر؟

يقترب ابنه ويقبّله على وجنتيه، وجبينه. يلاحظ دموعاً في عيني ابنه:

- يوسف!.. لماذا.. لماذا...

يقول يوسف كلاماً كثيراً يسمع بعضه ولا يسمع معظمه. يقول كلاماً غير مفهوم. تلتقط أذناه آخر جملة:

- ... تريد أن توصيني بشيء؟

يحاول الكلام، ويعجز. ويقبّله ابنه من جديد. ينظر إلى ابنه، وتخرج الكلمات بطيئة.. متثاقلة:

- هل.. هل حان... أشهد أن لا إله إلاّ الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله... هل...

يتوقف، متعباً، ويجيئه صوت ابنه:

- توصيني بشيء؟

ينتزع الكلمات من ركن بعيد في أعماقه انتزاعاً وتخرج مؤلمة.. متحشرجة.. متقطعة:

- أوصيك... أوصيك بزينب... أنت لا تعرف... الحقيقة أني لا أعرف... والتقرير احترق.. وربما.. والقاعدة للعاهر الحجر... ولكن رحمة الله واسعة... وأنا... أنا أحبّ لقاء الله... لو طَلَبَتْ منك مساعدة... أعني في المستقبل... زينب.. أرجو.. أرجو.. روضة.. المشكلة أن روضة.... روضة لا تتكلم.. ولن تتكلم... لو.. لو..

يفاجئه خدر يبتلع جسمه كلّه ويشلّ لسانه عن النطق. يسمع يوسف يتكلّم مع الدكتور موريسون:

- جدتي زينب ماتت قبل ولادتي بسنين طويلة وهو يوصيني بها. لم أفهم معظم كلامه. قال أشياء غريبة. تحدّث عن تقرير احترق وعن حديقة لا تتكلم.

قبل أن يهوي في وديان الصمت يسمع ردّ الطبيب ولا يفهم منه سوى كلمة واحدة:

- ... الغيبوبة....




... يا امرأة! عندما أحبّكِ أحبّ كل زهرة في كل حقل. أعانق كل شجرة في كل غابة. أضمّ كل موجة في كل بحر... عندما أحبّكِ أحبّ كل امرأة. هل تغارين؟ كل امرأة! أنتِ ذلك الثغر النسائي الواحد الذي تمنّى الشاعر بيرون أن يقبّله ويستريح. في عينيكِ سحر كل العيون منذ بداية التاريخ...

يا امرأة! أنتِ كل بئر شرب منها كل بدوي ظامئ عبر القرون... أنتِ كل حلم سهر معه كل عاشق منذ الأزل...

غازي القصيبي (١٩٤٠-٢٠١٠) كاتب وشاعر وروائي سعودي.





ISBN 978-1-85516-547-2
9 781855 165472 >